بصدد الصهيونية و الدولة الإسرائيلية: النشأة والتطور*

بقلم: ليليانا كوردوبا كزيرجينسكي - ماكس أجيل – سونيا فايمان

ترجمة: جمال الدين العمارتي

مقدمة

تم الإعلان عن قيام دولة إسرائيل في ماي 1948. سنعود بشكل نقدي إلى هذا الكائن الاستعماري من خلال تفحص الأسس التي تقوم عليها المقاربة الصهيونية، والكيفية التي بلورت بها نصها السردي، ودور نخبتها وتطورها منذ تأسيس الحركة الصهيونية إلى أيامنا هذه، في المجالات الاقتصادية والعسكرية والسياسية. وسننكب على انعكاسات هذا البناء على حياة السكان داخل الفضاء الذي يراقبه هذا الجهاز. لذلك لا مفر من مساءلة طبيعة المشروع الصهيوني منذ نشأته كحركة استعمارية في القرن 19، من خلال استعراض العلاقات بين الإمبريالية و البنيات الرأسمالية الاستعمارية التابعة لها.

تحليلاتنا تُصدر عن المنهجية المادية التاريخية، وتضع نفسها في تعارض مع نص هذا المشروع (الأيديولوجيا) وسياقه (شروط إعمالها و آثارها على الضحايا)، على ضوء مقاربتنا المناهضة للاستعمار.

تذكير ببعض الأساسيات

لم تكن الحركة الصهيونية تمتلك المادة الواقعية لبناء نصها السردي القومي بين عشية وضحاها. لكن الأمر كان يكتسي طابع الاستعجال، بالنظر إلى البرنامج الذي سطرته المؤتمرات الصهيونية. فاليهود كانوا موزعين على مختلف القارات، ويتكلمون لغات متنوعة، و يحملون هويات متعددة. لذا كان يتعين ابتكار نص سردي هيمني يتيح تحقيق الانسجام الداخلي و يضفي المشروعية على مشروع الدولة أمام الأمم. فالبناء المادي عبر إقامة شبكات مالية وتنظيم الجماهير التي يفترض أنها تدعم الحركة، لم يكن

---

*هذه المقالة مساهمة مع مجلة "التحرر" من مسؤولي الشبكة اليهودية الدولية لمناهضة الصهيونية (IJAN) التي تم تأسيسها عام 2008 بسان فرنسيسكو (كاليفورنيا – الولايات المتحدة)، وهم:
ليليانا كوردوبا كزيرجينسكي، متتبعة لتطور الصهيونية
ماكس أجيل، باحث في سلك الدكتوراة، في سوسيولوجيا التنمية بجامعة كورنيل، منسق المَوقعين Jadaliyya (جدلية) و Jacobin (جاكوبين)
سونيا فايمان، أخصائية في السوسيولوجيا

كافيا، لذا فإن بلورة عُدة حجاجية قوية متوافق عليها كان مطروحا على جدول أعمال الحركة. وقد تم وضع هذا البناء بالإحالة على مخيال، على نحو مماثل لما يصف به إريك هوبزباون[1] البناء الاجتماعي لمفهوم الأمة:

"حتى عندما توجد [...] إحالة على ماض تاريخي، تكمن خصوصية كل تراث "مختلَق" في أنَّ جعْله استمراريةً لهذا الماضي، يكون تخييليا على نحو واسع". هذا التأكيد يقترب من مفهوم "الجماعة المتخيَّلة" لبنيديكت أندرسون[2]. ففي فرنسا، على سبيل المثال، بنى المؤرخون الليبراليون الجمهوريون التاريخ "الوطني" على موروث تاريخ الكابيتيين (Capétiens) الدفاعي، الذين يتم تقديمهم تعسفا، على أنهم ورثة كلوفيس و شرلمان.

إن البناء القومي الإسرائيلي، صنيعة الحركة الصهيونية، استند على نص سردي أسطوري مؤسِّس يجعل من الجماهير اليهودية شعبا موحدا، له نفس الأصل ويمتلك تاريخا قوميا مشتركا، مرتبطا بأرض إسرائيل. من هنا الأهميةُ التي نوليها في تحليلنا إلى " التوجه الفكري" الذي يقترحه إدوارد سعيد حول التشكل اللامتماثل للذاكرة بين الغرب و الشرق، إذ يلاحظ بأن:

" أرض الفلسطينيين، في مرحلة أولى، تم تأويلها على نحو اختزالي لتصير "أرضا مقدسة"، ناسين بأن هذه الأرض لها مميزات مركبة، وأنها كانت متعددة العقائد. وبذلك تم النظر إليها على أنها أرض خلاء وبدون شعب، أسطورة بناها المستكشفون ورجال الدين في القرن 19، ومنها تتغذى الصهيونية"[3].

لاحقا، وأمام تطور وهيكلة المطالب و العُدة الحجاجية الفلسطينية، قامت "حرب النصوص السردية"، التي ما هي في آخر المطاف إلا صراع حول مشروعية المطالب، بين الصهيونية وحركة التحرر الوطني الفلسطينية. في هذه المرحلة، سيتبلور التاريخ في تفاعل مع "الآخر": سيؤكد الصهاينة أحقيتهم، بناء على "سابق وجودهم في الميدان" منذ العصر القديم، مرورا بالنصوص التي تؤرخ لكراهية اليهود والمقاربة السياسية للإبادة العرقية ، في حين يتعلق الأمر بالنسبة للفلسطينيين، بمعركة من أجل تحرير العقول من خطاب هيمني منافق ومغالط، فرضه الصهاينة على الصعيد الدولي.

ورغم البنية التحتية التي تم تشييدها بفلسطين منذ ثمانينيات القرن 19، احتسابا لإقامة دولة في المستقبل، فإن عزلة الدولة الصهيونية كانت أمرا مؤكدا. وذلك رغم ما وضعته من ركائز لتعزيز هذا البناء: موجات الهجرة اليهودية التي اجتاحت هذه الأرض إلى يومنا هذا، والجيش فائق القوة، و الإدماج الناجح لاقتصاد الدولة الصهيونية في الاقتصاد الرأسمالي العالمي، والمشاركة الفعالة لهذه الدولة في

النظام العالمي للاضطهاد الطبقي و العرقي و الجنسي. ووعيا من مسؤولي هذه الدولة بهذه العزلة التي باتت تتهددها، فإنهم لم يألوا جهدا ولا مالا في سعيهم لفرض منظورهم للأحداث.

طبيعة المشروع الصهيوني: القومية / الاستعمار

إذا كان الخبراء و الباحثون و المفكرون الذين يدرسون الحركة الصهيونية غير متفقين على الطابع المميز للفعل الصهيوني، فإنهم يُجمعون على انتمائه إلى حلقة الحركيات القومية ، وهو ما يقر به كذلك الداعمون للنصوص التاريخية الإسرائيلية الكلاسيكية.

وستنتشر النزعة القومية الحديثة في كل أرجاء أوروبا خلال القرن التاسع عشر. وستجذب بشكل خاص الشعوب الواقعة تحت نير الاحتلال و/أو الشعوب المضطهدة من قبل سلطة مركزية استبدادية. فازدهرت الأيديولوجية القومية، عقب ظهور التيارات الرومانسية، مثل أيديولوجية blut und boden (الدم والأرض) التي انتشرت على نطاق واسع في أوروبا الوسطى. وقد تأسست هذه الأيديولوجية انطلاقا من نظريات تقوم على العرق وعلى فكرة "رابطة الشعوب الجرمانية" تطورت في ألمانيا (هذه النظريات تؤكد أن الأصل العرقي هو أساس الأمة الألمانية، وتبرر بقاءها و توسعها عبر تدمير شعوب أخرى و الاستحواذ على أراضيها). بعض اليهود الأوروبيين، خاصة العلمانيون منهم، انغمروا في دوامات موجة النزعات القومية و حركات التحرر الوطني الصاعدة، بحثا عن هوية وعن مسار يخلصهم من القهر. هذا البحث سيقود اليهود المناصرين لفكرة القومية إلى إشهار لفظة "شعب" يهودي، حيث الشعب يتناغم مع "الأمة"، بنبرة أقرب إلى اللائكية. ومن ثم أضحى بإمكانهم الإفصاح عن انتمائهم. هناك إجابات غير قومية تنامت في نفس الآن، لكنها لا تندرج ضمن موضوع دراستنا. إن ضحايا البناء العرقي لفكرة معاداة السامية، وما ترتب عنها من أفعال، انخرطوا كذلك في توجهات أممية واشتراكية وشيوعية، وهو ما يمكن ملاحظته بسهولة في النصوص التاريخية لبلدان أوروبا الشرقية.

ناتان فنستوك المتخصص في الدراسات اليهودية ببلجيكا، نشر في الستينيات تحليلا معمقا حول الصهيونية، من منظور مناهض لها. فقد لاحظ، وهو يصف الولادة "اللاإرادية" للنزعة القومية اليهودية، أنها لم تكن حاضرة في هذه الفترة داخل الأوساط اليهودية العربية أو الأسيوية أو الأمريكية، ولا في أوروبا الغربية كذلك؛ وهو ما يؤكد بأن جذور الصهيونية منحصرة في النزعة القومية اليهودية لأوروبا الشرقية. ويفسر فنتسوك ذلك بكون"الطبقات الوسطى اليهودية، ضحية القومية العدوانية للبرجوازية الصاعدة ببلدان أوروبا الشرقية، تبنت بدورها، وعلى نحو طبيعي، الإيديولوجية القومية لجيرانها"[4].

ويرى العديد من محللي الشر المسمى" صراعا فلسطينيا- إسرائيليا" بأن المحور المركزي في هذا الصراع يتمثل في المواجهة بين قوميتين تمتلكان نفس الحق في الإقامة، و تتقاتلان على نفس البقعة الأرضية: الصهيونية، أو القومية اليهودية، والحركة الوطنية الفلسطينية المتشبعة بالقومية العربية. و ردا على هذه المقاربة التي ترى بأن الأمر يتعلق ب "صراع حول المشروعية" نقول: هل يجوز وضع قومية مشروع استيطاني ومجتمع استعماري في نفس مستوى قومية شعب مقهور ومصادر؟ تبدو لنا إجابة ميخائيل سيغين من شعبة السوسيولوجيا و العلاقات الإثنية بجامعة مونتريال، ملائمة؛ إذ ترى بأن هجرة اليهود هي العنصر الموجه للغزو الاستعماري:

"لسنا إزاء صراع بسيط بين قوميتين، بل أمام مسعى تدرجي من لدن جماعة إثنية – دينية من وراء البحار (اليهود الصهاينة الأوروبيون) لاجتياح و استيطان أرض سكان أصليين (عرب فلسطين) ... في هذه الفترة، كان بعض مفكري الصهيونية الأساسيين، مثل موسيس هيس و تيودور هرتزل، يعلنون صراحة انتماءهم للاستعمار، لكن النخب الإسرائيلية اليوم، تسعى إلى إخفاء هذا المشروع...لماذا؟..."[5]

فالتوجه الاستعماري القائم على المركزية الأوروبية كان جليا في كتابات أب الصهيونية تيودور هرتزل عندما يقول "سنشكل هناك، بالنسبة لأوروبا، حصنا منيعا ضد آسيا، و سنكون طليعة الحضارة ضد الهمجية".

وعلى الرغم من أن الصهاينة لم ينتظروا موافقة القوى الأوروبية للشروع في احتلال فلسطين، فإنهم حصلوا على تصريح بلفور في 2 نومبر 1917، بمثابة ميثاق ضمني يشرعن الاحتلال، معلنا بأنه "يرى بعين الرضا إقامة بؤرة قومية للشعب اليهودي، بفلسطين و [سيسخر مستقبلا] كل جهوده لتيسير تحقيق هذا الهدف". أرثر بلفور كان حينها كاتبا للدولة في الشؤون الخارجية للمملكة المتحدة، من هنا قيمة التصريح. فقد تمت أجرأة الوعد الذي يتضمنه، خلال مؤتمر باريس (1919)، السابق على معاهدة سيفر (1920)، والذي تم إقراره في مؤتمر سان ريمو (1920). وتبين الأحداث التي أعقبت التصريح و ما ترتب عنها، أن الاستعمار اليهودي اعتمد بشكل جلي على عواصم أوروبية. لقد كان المنطق الاستعماري الأوروبي في أوجه: فالقرارات التي كانت تحدد مصير الشعوب المقهورة في بقاع أخرى من العالم كان يتخذها قادة أوروبيون فوق أراض أوروبية. فضلا عن أن النصوص التي يتم اعتمادها تصبح "سارية المفعول" دوليا".

إن انخراط النخب البريطانية في الحركة الصهيونية تم بسهولة و في انسجام واضح مع معتقدهم الديني. فقراءة الكتابات (الإنجيل)، ذات الأولوية في تعاليم الكنيسة الأنجليكانية، تقدم دعما قويا للحملة

الأوروبية الاستعمارية على الشرق. ونرى اليوم بأن الجمعية الأنجليكانية Friends of Israel (أصدقاء إسرائيل) تصرح بأن أهدافها تتمثل في دعم الشعب الإسرائيلي و تأمين حدود آمنة لدولة إسرائيل.

موشي ماشوفير، و هو يهودي إسرائيلي يقيم في لندن و ساهم سنة 1962 في تأسيس المنظمة الاشتراكية المناهضة للصهيونية المعروفة ب Matzpen (ماتزبين، البوصلة بالعبرية)، سيقف عند مسألة الصهيونية وعلاقتها بالتيارات القومية:

"الأيديولوجية الصهيونية تمتلك العديد من سمات النزعة القومية... مع خصوصية كون "القومية" ههنا تخييلية، أي بناء أيديولوجي. وإذا كانت كل القوميات إلى حد ما أبنية أيديولوجية، فإن هذه القومية تفوق القوميات الأخرى على هذا المستوى. فالقول بأن اليهود في العالم يشكلون قومية، فكرة لا تستقيم. ذلك بأن القومية بمعناها الحديث مفهوم لائكي، و الحال أن النقطة المشتركة الوحيدة بين اليهود هي الديانة (اليهودية)..."

فبما أن اليهود عاشوا تجارب متعددة فإنه يمكن الحديث عن تاريخ متعدد، و في أقصى الحالات يمكن الحديث عن "شعوب يهودية". و بالتالي نلاحظ بأن التاريخ المتعدد لليهود هو تاريخ جماعات محلية ذات مسارات مخصوصة، أحيانا تكون مترابطة مع جماعات أخرى و أحيانا أخرى منفصلة. ونشهد في العقود الأخيرة محاولة إضفاء طابع متجانس على الهوية اليهودية بفعل تحكم الجهاز الصهيوني في المنظمات الطائفية (الذي لم يسلم منه سوى المتشددون دينيا و المناهضون للصهيونية).

تثبيت مبدأ الصهيونية

"أبناء إسرائيل يمتلكون الحق في "بلدٍ، السرمديُّ ربُّكَ، يمنحك إياه"[6]".

هذا التأكيد يقودنا إلى اعتبار"الحقيقة الصهيونية" تدليسا مفهوميا يهيكل بناءَ سردٍ هيمني. إنه تدليس على ضوء "الحس المشترك" من جهة كونه "عقلانية مشتركة"، أو تدليس بالنظر إلى مفهوم" الحس السليم" كما صاغه غرامشي في "كراسات السجن" والذي يعني تحرر المضطهَد من "الحس المشترك" المفروض من لدن الشرائح المسيطرة، والذي يتحول إلى أداة عقلانية مطلبية تروم فهم الواقع وتغييره. هذا الخطاب الذي بناه المفكرون الصهاينة، تم، في نظرنا، إغناؤه و رعايته من قبل العديد من "الخبراء" و صناع الرأي، و هو متوافق مع سرد استعماري و استعماري جديد.

إن عناصر التحليل المقدمة هنا حول طبيعة المشروع الصهيوني ودوره في بلورة السياسات الدولتية، تقودنا نحو أنموذج paradigme الاستعمار الاستيطاني. وهذه بعض التوضيحات حول هذا المفهوم:

"غالبا ما يتم وصف الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني على أنه منفرد واستثنائي، لا يشبه مختلف الصراعات الاستعمارية الماضية و الراهنة إلا قليلا. غير أن الدافع بالنسبة للصهيونية كما هو الشأن بالنسبة لمشاريع استعمارية استيطانية أخرى مثل الاستعمار البريطاني لإيرلاندة أو الاستعمار الأوروبي لأمريكا الشمالية أو لجنوب إفريقيا أو لأستراليا، هو السيطرة على الأرض وعلى مواردها و تهجير سكانها الأصليين (...) إن المؤتمر السنوي المنعقد تحت شعار PAST IS PRESENT: SETTLER COLONIALISM IN PALESTINE (راهنية الماضي: الاستعمار الاستيطاني بفلسطين) يجعل من الاستعمار الاستيطاني أنموذجا مركزيا يمكن من خلاله فهم فلسطين.

ويتميز الاستعمار الاستيطاني بخاصيتين رئيسيتين. أولا يحكمه منطق الإبادة. فالمعمرون يأتون للبقاء. و مهمتهم الأولى لا تتمثل في استغلال السكان الأصليين بل في استبدالهم. والاجتياح ليس عرضيا بل بنيويا. وفضلا عن العنف المؤسِّس لانتزاع الأراضي، فإن السكان الأصليين الناجين، يتم إخضاعهم لاستراتيجيات متنوعة يسعى المجتمع الاستعماري من خلالها إلى إبادتهم" ، وفقا لتعبير باتريك وولف الباحث في التاريخ بجامعة لاتروب (أستراليا). فحسب هذا الباحث، أنموذج الاستعمار الاستيطاني الذي عادة ما يُتداول في حالة الولايات المتحدة وأستراليا يمكن أن ينطبق كذلك على إسرائيل. فالصهيونية بالنسبة لوولف ليست فقط " عنصرية أخرى" أو "شكل آخر من أشكال الاستعمار" بل إن **"الصهيونية تحمل في ثناياها إرادة إبادة السكان الأصليين"**[7].

موشي ماشوفير يؤكد على ضرورة التمييز بين الاستعمار الاستغلالي والاستعمار الإقصائي الذي، بحسبه، يحدد الاستعمار الاستيطاني بدقة أكبر:

"يجب أن يكون واضحا بالنسبة لكل ماركسي، بأن التمييز بين هذين النمطين من الاستعمار اللذين ينتهجان سياسات اقتصادية شديدة الاختلاف، مسألة أساسية. إذ يترتب عن ذلك نتائج عديدة و حاسمة. فالمعمرون في إطار الاستعمار الاستغلالي يشكلون أقلية صغيرة، عادة ما تشكل شبه طبقة مسيطرة و مستغِلة، مثلما كان عليه الأمر في الجزائر مثلا وفي جنوب إفريقيا. في حين أينما حل الاستعمار الإقصائي (= الاستعمار الاستيطاني) نجد بأن المعمرين قد شكلوا قومية جديدة، مثلما كان عليه الأمر في أمريكا الشمالية و أستراليا و ونيوزلندا. و في الحقيقة لا أعرف أي استثناء لهذه القاعدة".

مقاربتنا لطبيعة المشروع الصهيوني تَلقى العديد من الاعتراضات من لدن عدد من المؤلفين الذين يرفضون أنموذج الاستعمار، مؤسسين عائقهم الأيديولوجي بناء على غياب ميتروبول يكون منطلقا للحملة

الاستعمارية. لقد سبق أن لاحظنا أعلاه بأن تصريح بلفور الذي أطلقته السلطات البريطانية قد تم تثبيته بواسطة معاهدات أوروبية تتمتع بقيمة قانونية ، كانت هي أساس شرعنة الفعل الصهيوني. فلندن، على رأس القائمة، و باريس وبرلين و فيينا ولاهاي و بروكسيل هي العواصم التي قذفت بالحركة الاستعمارية اليهودية نحو الشرق العربي. ويتمثل الاعتراض الثاني في الطريقة التي "تحرر" بها المعمرون الصهاينة من القوة الأوروبية في ما سمي ب"حرب الاستقلال".

"إن حرب التحرر الصهيوني ضد الإمبراطورية "البريطانية"، التي دامت ثلاث سنوات، من 1945 إلى 1948، كانت مماثلة للحرب التي خاضها المعمرون الأمريكان و الأستراليون و النيوزيلانديون ضد الميتروبول (كما حصل حديثا ل إيان سميث بروديسيا)، فكلها أمثلة للاستعمار الأوروبي حيث تم إحداث قومية محلية[8]".

غير أن المعمرين الصهاينة خاضوا في نفس الآن حربا تهجيرية ضد السكان الأصليين: "حرب 1948 تبدو فعلا حرب استقلا ل موجهة ضد الميتروبول القديم، لكنها كذلك موجهة ضد السكان الأصليين وبالتالي تظل حربا استعمارية[9]".

مسألة الحقوق التاريخية

يرتكز منظور الجهاز الصهيوني وخطابه واستراتيجياته على القول بأن أرض إسرائيل، و هو الإسم الذي أعطاه الصهاينة لفلسطين، حق تاريخي و ملكية مقصورة على "الشعب" اليهودي. و ما الفلسطينيون سوى مستأجِرون خاضعون لحسن إرادة الإثنية المسيطرة، وبالتالي فإن تشبثهم بأرضهم مجردُ مزايدة لكونهم جزء من العالم العربي، و لأن أرض إسرائيل لا تنتمي إلى هذه المجموعة. وتستطيع دولة اليهود تحَملهم شريطة أن يقبلوا بسيادة الإثنية اليهودية، أي أن الأمر يتعلق بنظام للفصل العنصري (الأبارتيد).

و مؤسسو الصهيونية، في غالبيتهم، لم يكونوا متدينين، لكنهم استعملوا التوراة باعتباره كتابا للغزو الاستعماري. فقد اعتبروا أن الوقائع التي تصفها التوراة أحداثٌ تاريخية تبرر "عودتهم" بعد نفي دام طويلا. ونعلم اليوم أن نظرية المنفى و العودة هذه، هي مجرد تخييل. فالآثار- معدات ووثائق بالعبرية القديمة أو يعود تاريخها إلى هذه الحقبة- لا تسمح بوضع نظرية علمية مقنعة حول سيادة يهوذا القديمة وحدودها الجغرافية. إنها الخلاصة التي نصل إليها بعد قراءة مؤلف لأخصائيين في الأركيولوجيا، هما فنكلستاين و سيلبرمان[10]. ففي أقصى الحالات يمكن أن نعثر على بعض القطع النقدية التي سكتها سلطات محلية. و كما يلخص ذلك المفكر المناضل موشي ماشوفير:

"لكي تكون صهيونيا لا حاجة لأن تؤمن بالرب، بل أن تؤمن بأنه وعَد اليهود بهذه الأرض. وأحد المنتوجات العملية لهذا الادعاء، تكمن اليوم في تقديم مبرر شكلي لمعاملة العرب الفلسطينيين على أساس أنهم يمارسون الابتزاز"[11].

لكن هل حصل في التقليد اليهودي أن كان هناك حنين لصهيون (المتجسد جغرافيا في القدس)، صاحبته مشاريع ملموسة للإقامة هناك؟ يبين التاريخ أنه منذ إقامة الخلافة العثمانية بل وقبل ذلك، فتح السلطان أبايزيد الثاني أبواب إمبراطوريته أمام اليهود المطرودين من إسبانيا سنة 1492.
"عشرات الآلاف من اليهود نزحوا إلى الإمبراطورية العثمانية. وغالبية المطرودين فضلوا الإقامة في كبريات المراكز الحضرية مثل إسطنبول و إدلب وإزمير (سميرنا) و القاهرة و البلدان المغاربية[12]".

وعلى الرغم من استقبال العثمانيين لليهود بفلسطين، فإن القليل منهم من ربط مصيره بالأرض المقدسة، ولم يتغير هذا النزوع إلى حدود مجيء الدولة الصهيونية. وحتى في فترة حملات الإبادة الحرجة، مع ما صاحبها من صعوبات اقتصادية وتنامي كراهية اليهود (التي كان القيصر يشجع عليها) ما بين 1880 و 1920 فإنه، من بين أربعة ملايين من اليهود الذين هاجروا من أوروبا الشرقية، لم يتجه منهم إلى فلسطين سوى مائة ألف، رغم حث الصهاينة على ذلك. وتجدر الإشارة إلى أن الأحداث المشار إليها أعلاه تم حجبها بعناية في النصوص التاريخية الإسرائيلية الرسمية بهدف تكريس أطروحة العودة (المبتغاة جدا) إلى صهيون بالنسبة لمجموع "الشعب" اليهودي. بالتأكيد هناك علاقة بين تجمع اليهود و فلسطين لكن هناك مسافة شاسعة بين هذا الأمر و إقامة مشروع سياسي.

لنعد إلى الأداة الأساس التي تشرعن السرد الصهيوني: تبَني التوراة باعتباره وثيقة قانونية. فإذا كانت وظيفة هذا الكتاب المقدس تتمثل في تبجيل قصص شعب إسرائيل و إقامة عهد مع الرب، فإنه لا يهدف تقديم وثائق طوبوغرافية. و بالتالي فإن الوصف الجغرافي للاستيطان من قِبل العبرانيين يظل عرضيا، و نفس الشيء بالنسبة لحصر الحدود. هذا الالتباس يجعل النقاشات بين مختلف مناصري إسرائيل الكبرى حول الحدود التوراتية مضطربا. ولحد الساعة، تحرص دولة إسرائيل على عدم وضع دستور، و يكمن أحد أسباب ذلك، في ضعف إرادة ضبط الحدود.

ولكي تستقيم الصيغة التي بموجبها يشكل الشعب اليهودي وأرض إسرائيل كلا مندمجا، يستعمل الجهاز القيادي، منذ قيام الحركة الصهيونية، العلومَ لتعزيز السرد القومي، كتسخير الأركيولوجيا على سبيل المثال. كلوي روسنر، وهي باحثة في سلك الدكتوراة متخصصة في التاريخ المعاصر بمعهد العلوم السياسية بباريس محقة، في رأينا:

"بموجب الصلة بين الأرض والهوية، تتدخل العلوم التاريخية في تجسيد المشروع الصهيوني. هكذا صار التاريخ و الأركيولوجيا مبحثين أساسيين داخل الجامعة العبرانية التي كانت في طور النشأة في العشرينيات من القرن الماضي ...فالأركيولوجيا باعتبارها علما يدرس الآثار الظاهرة للحضارات القديمة، تمكن من إحياء هذا الماضي اليهودي بفلسطين... دافيد بن غوريون كان يتتبع عن قرب تطور الأركيولوجيا داخل الدولة الإسرائيلية الجديدة: يوم 27 يونيو 1950 ... اقترح أن يتم تغيير إسم فلسطين القديمة، "أرض بهذا الإسم لا وجود لها... و [لفظة فلسطين] لا معنى لها. ولتعويضها يتعين بكل بساطة استعمال لفظة "أرض إسرائيل"..."[13]

فضلا عن الأنجليكان، هناك مجموعات متدينة متشبثة بقراءة حرفية للتوراة؛ ، فالشعب اليهودي والشعب المختار، بالنسبة إليهم مترادفان، و المنحدرون منهما هم اليهود المعاصرون. إنهم على الخصوص البروتستانتيون الأصوليون و أقرباؤهم المسيحيون الصهاينة الذين يضمون في الولايات المتحدة ما يقارب 50 مليون شخص. وقراءتهم للنص هي تأويل خاص جدا لسفر التكوين 9: 27 الذي يبرر المطالبة ب "تفوق البيض". إن الأسس الاجتماعية والعقائدية ل Ku Klux Klan[14] (كو كلوكس كلان) تبين وجود تقارب لا غبار عليه مع المسيحيين الصهاينة: بروتستانت بيض و بروتستانت أنجلوسكسونيون بيض (WASP)"واسب" (جماعة إثنية – دينية مكونها الأكثر شهرة هو النخبة العرقية التي تسيطر على الاقتصاد الأمريكي)[15].

إن التقارب الأيديولوجي بين البروتستانت الأصوليين، المكون الهوياتي لرواد اجتياح "أبايا يالا" (الإسم الذي اختارته منظمات "الشعوب الأصلية الأمريكية" لأمريكا عوض الإسم المشتق من أمريغو فيسبوتشي). و الاستعمار الصهيوني واضح للغاية: التوراة باعتباره سردا تاريخيا يصوغ رؤية إثنية-دينية، تم شحنه بالعقائد العنصرية لأنتروبولوجيا القرن 19.

تشكل الأجهزة الصهيونية: المؤسسات البدئية للدولة، وتطورها راهنا

كان الاستعمار الصهيوني مشروعا استعماريا رأسماليا بالأساس. فقد كان القصد منه إنشاء دولة يهودية في فلسطين. هذه السيرورة كانت تستلزم إنشاء بنية طبقية يهودية مكتملة لتعويض المجتمع الأصلي. وبتعبير موسى بوديري، "كان المؤسسون يعتزمون بناء مجتمع يهودي طبقي بفلاحيه وطبقته العاملة وبورجوازيته ... منعزل ومختلف عن الشعوب والدول الأخرى. أرادت الصهيونية أن يكون لها، ليس فقط صيرفيوها وحرفيوها اليهود، بل وكذلك لصوص حقيقيون و عاهرات حقيقيات من اليهود[16]".

إن إنشاء مجتمع كولونيالي جديد، على أرض فلسطين، مزود ببنية طبقية يهودية، كان يستلزم بدوره إبعاد السكان الأصليين و بالتالي اللجوء إلى العنف.

ولإنجاح هذا المشروع ، كان يتعين على الذين حلموا به ، وهم مثقفون بورجوازيون صغار، أن يعقدوا تحالفات مع الممولين، أي على العموم، أن يشكلوا جبهة تجمع بين المال و الناس والدعم السياسي. وبعبارة أخرى، رأسماليون قادرون على دعم المشروع ماليا، و يهود مستعدون (أو يمكن إقناعهم) لترك أوربا للاستقرار بفلسطين، وكيان سياسي قادر على تقديم الدعم الضروري. ويستطيع المشروع اللجوء إلى القوة المسلحة الضرورية لحماية الممتلكات الصهيونية المحدثة ، وهو ما حصل بالفعل.

منذ البداية، كان الأمر يتعلق بتجمع غير مستقر وتطوري، تقوم فيه مختلف القوى بأدوار مختلفة، في لحظات مختلفة. و كانت الموجة الأولى من الهجرة، تطمح إلى الجمع بين الرأسمال الصهيوني والعمل العربي واليهودي معا. وبما أن المعمرين اليهود المنحدرين من أوروبا الوسطى لم يكونوا يتمتعون بنفس المستوى المعيشي السائد في أوروبا، فإن المشروع الاستعماري وجد صعوبات في تأمين، بالقدر الكافي، أحد المقومات الأساسية لمستعمرة قائمة على الاستيطان، المتمثلة في المستوطنين. ولم يتمكن الصهاينة من حل مشكلة الأجور المرتفعة التي كان يطالب بها المستوطنون إلا في الجزء الأول من القرن العشرين: تم إعطاء الأولوية لتأسيس منظمات من لدن أوربيين غربيين ، لكن وكذلك من لدن مانحين رأسماليين واستثماريين أمريكيين صهاينة . وتم الاعتماد كذلك على مساهمة رأسماليين أغنياء وعلى وسائل تحويل الموارد المالية الجماعية لليهود الأمريكيين والأوروبيين نحو فلسطين. كانت هناك حزمة شديدة التنوع من الشركات والشركات المجهولة الإسم والجمعيات وكيانات شبه دولتية مثل Anglo Palestine Company (الشركة الإنجليزية -الفلسطينية) التي تم إنشاؤها عام 1902 بلندن من طرف أعضاء من الحركة الصهيونية، على أساس بنك من أجل دعم الاستثمارات في إطار المشروع الاستعماري. و قد تعاطت إلى شراء الأراضي من أجل المهاجرين اليهود الجدد. وبعد 1948 اتخذت إسم Bank Leumi (البنك الوطني)، و هو أهم بنك حاليا.

تم إنشاء **المنظمة الصهيونية العالمية** في شتنبر 1897 خلال المؤتمر الصهيوني الأول المنعقد ببال بسويسرا. وهي أهم منظمة يهودية دولية في العالم حاليا.

و قد قرر المؤتمر الصهيوني الأول إنشاء مؤسسة Le Fond National Juif (الصندوق القومي اليهودي). وهي أداة مركزية، ظهرت إلى الوجود عام 1901 وتخصصت في شراء الأراضي. وفوق هذه الأراضي تمت إقامة الكيبوتزات بهدف اجتياح الأراضي وقوة العمل في نفس الوقت. و كان الصندوق

القومي اليهودي (ص.ق.ي) والمستوطنات الزراعية تحجز الأرض من أجل "الشعب اليهودي"، مشكلة بذلك الجهاز شبه الدولتي، قبل إنشاء دولة إسرائيل فعليا. وكما يلاحظ السوسيولوجي جرشون شفير "تم بناء الكيبوتز على أرض (ص.ق.ي) فصار بذلك النواة الحقيقية لبناء دولة إسرائيل على الرغم من أن أعضاء الكيبوتز كانوا يشكلون أقلية معزولة بفلسطين"[17]. وكان (ص.ق.ي) كذلك أداة لتحويل الاعتمادات المخصصة لشراء الأراضي قبل قيام إسرائيل، ودعما ماليا للصهيونية بعد إنشاء الدولة. كما مكن الصندوق من تجميع العديد من مصادر التبرعات ومن الأشخاص عبر العالم وتحويل كل ذلك إلى دعم فعال وجماعي للمجهودات الاستعمارية.

الهستدروت أو نقابة إسرائيل المزعومة، هي المؤسسة الثالثة شبه العمومية للفصل العنصري. تم إنشاؤها سنة 1920 وتم استعمالها مباشرة من أجل التحكم في جوانب واسعة من النظام الإنتاجي اليهودي. فالهستدروت هو الذي خطط ل " اجتياح العمل"، مؤَمنا بذلك السيطرة على قوة العمل والاهتمام بمستلزماتها الاقتصادية و الاجتماعية: الصحة، رعاية الأطفال...كما تحمل الهستدروت مسؤولية جلب قوة العمل، مؤَمنا بذلك إنجاز مشروع الاستيطان، في حين اهتمت الوكالة اليهودية بجلب رؤوس الأموال. هكذا ولدت "طبقة جديدة" ... دبرت، إلى جانب البورجوازية المحلية والمستثمرين الأجانب، الاقتصاد المختلط، العمومي و الخصوصي لإسرائيل[18]. هذه "الطبقة الجديدة" أضحت تشكل في النهاية شريحة واسعة من الطبقة المسيطرة الإسرائيلية التي تستفيد من مواقع ذات امتيازات داخل اقتصاد الدولة. و الهستدروت باعتباره مكونا من مكونات الدولة، سيمزج بين الميثاق الاجتماعي الاستعماري والدفاع عن مصالح فئوية، بإقصاء العمل الفلسطيني وجعله "جيشا احتياطيا للعمل" بشكل مستديم. كان الأمر يتعلق بتطويع الطبقة العاملة الإسرائيلية و منحها في نفس الآن جزرة بعض الامتيازات عندما تُحْسن التصرف في المشاريع الكبرى وقطاعات الدولة، أي حيث توجد القيادات الحقيقية لدولة إسرائيل. كل ذلك ينبني على الإخضاع المستمر و القمع والإقصاء الاستعماري للقطاع الفلسطيني.

كما تم في الآن نفسه، وضع مساهمات رأسمالية صهيونية في مشاريع ذات ربح مباشر. وبذلك شكلت الحوامض المنتوج الأول المعد للتصدير من فلسطين، باعتباره مصدرا لأرباح طائلة. مقادير هائلة من الرساميل تم توجيهها لشراء الأراضي. وغالبية عمال مزارع الكروم كانوا فلسطينيين مستعدين للعمل بأجور أقل، في الزراعة والجني الذي يتطلب عددا كبيرا من اليد العاملة. وبذلك كان المشروع الصهيوني، حتى في بداياته الأولى، يجمع بين المظاهر "الرأسمالية" و "الاستعمارية"، مغذيا السيرورة المزدوجة التي طبعت الصهيونية منذ البداية: أولا سرقة الأراضي والبحث عن الربح ثانيا. وتحقيق الربح كان يتم عن طريق المزاوجة بين العمل الفلسطيني والأرض "اليهودية". أو من خلال خلق اقتصاد مواز لا يؤتي أكله من حيث الربح إلا لاحقا. وكان الرأسماليون الخواص غالبا ما يفضلون الربح المباشر. لكن الاقتصار

على الربح المباشر كان من شأنه أن يهمش البنية شبه العمومية و مشروع الاستيطان المرتبطين بمشاريع صهيونية أخرى: التحالف مع الإمبريالية وتقديم فرص للبورجوازية الصغيرة من أمثال هرتزل و روبان.

إذن كيف يمكن استرجاع مسار الحركة الصهيونية (أو أخده بعين الاعتبار)؟
وكما يلاحظ المؤرخ زاشاري لوكمان:
"لم يتخذ الكيبوتز فعليا شكل المنظمة و المعنى السياسي والاقتصادي و الاجتماعي الذي حافظ عليه طيلة ما يناهز نصف قرن إلا في العشرينيات من القرن العشرين، بعد أن تمت إعادة تشكيل بوادره لما قبل الحرب، و التي كانت تعتبر (وهو أمر خاضع للنقاش) بمثابة "النواة الحقيقية لقيام الدولة". و لم يؤَمن العمل الصهيوني موقعه المتقدم في إطار مجموع القوى السوسيو- سياسية الساعية إلى إدارة "اليشوف" (المستوطنة اليهودية في أرض إسرائيل) والحركة الصهيونية، إلا في بداية الثلاثينيات"[19].

إن طابع المنفعة العامة الذي اكتسبته الكيبوتزات بالنسبة للحركة الصهيونية للعمال و بالنسبة للإمبريالية، زاد من قوة هذه النزوعات السياسية و الاجتماعية داخل الحركة الصهيونية، وساهم مباشرة في سيطرتها. فتَطَلُّع بريطانيا للحصول على موقع متقدم قرب قناة السويس و لتقسيم العالم العربي إلى جزأين، لم يكن بالأمر الجديد، والصهيونية ما انفكت تستعمله استجلابا للمصالح البريطانية.

و كلما ارتبط الفصل الاستعماري المحايث للمشروع الصهيوني باجتياح مزيد من الأراضي إلا وعظمت إمكانية تعرضه للمقاومة. وقد اكتسب مشروع العمل المقتصر على الصهاينة، قوة أكبر بسبب المقاومة الفلسطينية التي كانت تهدد وجوده. وبعبارة أخرى، ستتداخل الصراعات القومية والاجتماعية والاستعمارية بين اليهود وغير اليهود و ستصبح إمكانية إقامة منظمات مشتركة بينهما في عداد المستحيلات.

وقد واصل القطاع اليهودي في الاقتصاد نموه بفضل تدفق الرأسمال عليه، دون تقديم أي دعم للقطاع العربي. نفس الأمر سيحصل بالنسبة للعمال العرب، عبر إقصائهم المتزايد عن قطاعات واسعة من نظام الإنتاج بفلسطين الخاضعة للانتداب البريطاني.

هذه الصيغة تضع الأصبع على أمر حيوي. أرلو زوروف و مفكرون آخرون في قطاع العمل الصهيوني – باستثناء جابتنسكي- استبعدوا العنف الهجومي و العقاب السياسي عن الوسائل الضرورية للنهوض بالمشروع الصهيوني (كانوا يرون بأن السيرورة الاستعمارية و الحاجة إلى حماية ملكيتهم الجديدة يجب أن تتم على نحو دفاعي). لكن العنف، بطبيعة الحال، كان حاضرا باستمرار، خاصة من لدن سلطات الانتداب البريطانية التي كانت تدعم بشكل متواصل البرنامج الصهيوني بفلسطين. لكن الصهاينة

لم يتمكنوا من شراء أكثر من 7 في المئة من الأراضي. ورغم ذلك شيدوا فوق هذه المساحة مؤسسات شبه دولتية قوية، بما في ذلك قوة شبه عسكرية فعالة مكنت من مراكمة أسباب نجاح النكبة.

تركيز السلطة تم في إطار السياسة الترابية البريطانية: الإثقال المتواصل لكاهل الفلاحين بالديون لإجبارهم على بيع أراضيهم؛ سياسة تهجيرية تسمح بالرفع المستمر من عدد سكان المستوطنات. و في نفس الوقت، مكنت هجرة اليهود الألمان من جلب رأسمال وفير أعطى لشبه الدولة الصهيونية دفعة قوية ما بين 1933 و 1939. و هو ما تم إقراره في اتفاق هافارا الذي عقده الصهاينة مع النازيين، ففتح الطريق أمام تحويل الرساميل ونقل اليهود الألمان نحو فلسطين.هذه السياسات في مجملها ضاعفت من حدة الضغط على السكان الفلسطينيين ودفعت بهم إلى الهجرة نحو أحياء سكنية عشوائية بحواضر المدن، وإلى فقدان أراضيهم. مما أدى إلى خلق أحزمة بؤس حول المدن الرئيسية، و إلى صعوبة في العيش، ما انفكت تتزايد، بالنسبة لفلاحين ما فتئت مساحة أراضيهم تتضاءل. وهو ما أدى إلى انتفاض الفلسطينيين بين 1936 و 1939، انتفاضة عارمة للفلاحين و البروليتاريا الرثة مناهضة للاستعمار و الإمبريالية، عمت كل أرجاء فلسطين.وقد واجهها التحالف الأنجلو – صهيوني بقمع شرس، مكنه من التغلب عليها. وفي نفس الوقت، عارضت الطبقة المسيطرة الفلسطينية في غالبيتها، هذه الانتفاضة واعتبرتها تشكل تهديدا لسلطتها و لمستوى معيشتها، مع بعض الاستثناءات، مثل عبدالقادر الحسيني. وعندما سحق التحالف الأنجلو – صهيوني هذه الانتفاضة، وجد المجتمع الفلسطيني نفسه متشرذما متداعيا محطما، ونشأت في صفوف قيادته العضوية الكامنة، انقسامات حالت دون أن تصير (هذه القيادة) قوة قادرة على مواجهة الهجمة الصهيونية سنة 1948. وعرفت قطاعات الاقتصاد الصهيونية، المتقدمة أصلا على القطاعات الفلسطينية، نموا أكبر بفعل التمييز الذي مورس على الفلسطينيين في المفاوضات حول العقود، حيث كان الرأسمال الصهيوني مفضلا على الرأسمال الفلسطيني، في عمليات مثل مصانع الملح بالبحر الميت. وعلى سبيل الختام، عززت سياسة استبدال الواردات، التي اتبعها الصهاينة من 1939 إلى 1945، الأساس الاقتصادي الصهيوني.

هذه الحزمة من العوامل جعلت انتصار الصهيونية خلال النكبة أمرا لا مفر منه. فما كان يبدو، من زاوية، سرقةً للأراضي ، صار بالإمكان أن يبدو من زاوية ثانية، بناءً للدولة، ومن زاوية ثالثة، سيرورة للتراكم الأولي، علما بأن الدولة البدئية كانت تؤَمن كمية ضخمة من المورد الأهم، أي الأرض. وقد كانت المؤسسات الصهيونية المقامة فوق هذه الأرض قادرة على التقدم في بناء قاعدتها الاقتصادية من خلال تركيزها على القطاع شبه الدولتي. و استمر تدفق الرساميل من أوروبا، خاصة ما سمي بجبر الضرر الألماني – أكثر من سبعة ملايير دولار. وجاء هذا التدفق كذلك من الولايات المتحدة، خاصة من الطبقة

الوسطى اليهودية وهي في طور الارتقاء الاجتماعي. وكان المستثمرون الصهاينة يرون في فلسطين التاريخية فرصة للربح. فتدفق الرساميل لم يكن يتكون فقط من المساهمات والمساعدات، بل وكذلك من استثمارات كانت تفضي إلى خروج رساميل، أي فوائد محولة إلى الوطن.

وحيث إن المادة البشرية التي كان الصهاينة يأملون بناء الدولة بواسطتها – يهود أوروبا الشرقية - ما بين 1948 و 1967 لم تعد في المتناول، فقد حصلت هجرة جماعية، غالبا ما كانت مدبرة من طرف الصهاينة، ليس فقط من إفريقيا الشمالية، بل ومن المشرق و كردستان اليهودية ومن مناطق أخرى. وكان هؤلاء المهاجرون يمارسون "جمع الحطب وجلب الماء"، أي يشكلون طبقة معوزة وُجدت لتحتل الدرجات الدنيا من السلم الطبقي. غير أن هذه الجماعة من اليهود كانت تحتل أيضا موقع القيادة داخل الحركة الصهيونية، بالنظر إلى خصائصها المشرقية. فالصهاينة كانوا يرون بأن هذا " المسحوق البشري"، بتعبير بن غوريون، يمكنه التقرب من الفلسطينيين بحكم قربه منهم على المستويات الثقافية والاقتصادية واللغوية. كانت القيادة الصهيونية تسعى إلى تسطير خط استعماري – أو طائفي- بين اليهود وغير اليهود. و كانت الحرب إحدى الوسائل لبلوغ هذا الهدف. هكذا كان بن غوريون و الضباط الآخرون يرون الأمر. موشيه شاريت الذي لم يكن يحبذ هذه السياسة، كان يقول " (الدولة) بحسبهم، ترى في الحرب الوسيلة الرئيسية، إن لم تكن الوسيلة الوحيدة، لزيادة الرفاه، والحفاظ على توتر معنوي...(التدخل القمعي) هو بمثابة إكسير للحياة... فهو يساعدنا على الحفاظ على توتر مدني وعسكري"[20]. هذا التدخل من خلال شن غارات متكررة وراء خطوط وقف إطلاق النار تستهدف الفلسطينيين الذين يرفضون التراكم الأولي الإسرائيلي المنجز فوق أراضيهم، يتيح لنا مبررا لتخصيص أجزاء كبيرة من ميزانية الدولة للتسلح. إسرائيل من جهتها، كانت تقدم نفسها حليفا طوعيا لفرنسا و بريطانيا العظمى في عملية قناة السويس سنة 1956 ثم من خلال مساعدة فرنسا على قمع الانتفاضة خلال حرب الجزائر.

هذا النموذج انتهى في منتصف الستينيات، ودخلت إسرائيل في مرحلة أزمة. وشكلت الإضرابات والاضطرابات التي عمت صفوف العمال المنحدرين من شمال إفريقيا، مؤشرا على أن الوسائل "الداخلية" المستعملة في تلطيف التوترات الطبقية، لم تعد مجدية. وقادت العسكرة إلى حرب 1967 التي تم إعلانها بضوء أخضر أمريكي. هذه العملية دمرت الدول العربية القومية وأزاحت قومية صاعدة شديدة الراديكالية في مصر وسوريا، مجاورةً لدول عربية معتدلة، وأفسحت المجال لانعطافة نحو اليمين في البلدين بقيادة أنور السادات في مصر وحافظ الأسد في سوريا.

وفي نفس الآن، تسارعت عسكرة ميزانية الدولة الإسرائيلية وكذا بنية الإنتاج. و منح احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة ذريعة لعسكرة متواصلة – احتياج الدولة الطوعي إلى جيش مهمته تكثيف الاحتلال،

و إلى قطاع عسكري يستجيب لمتطلبات هذا الجيش. و بعد 1970 ارتفعت المساعدات الأمريكية بشكل كبير في المجال العسكري. وقررت الحكومة الأمريكية، عن وعي، إنشاء القاعدة الصناعية للدفاع الإسرائيلي، و أتاحت لإسرائيل إمكانية تخصيص 25 في المائة من مساعداتها العسكرية لإنجاز مشتريات داخلية. وبالنظر إلى حجم المساعدات، فقد توجهت أساسا إلى المساهمة في المركب العسكري – الصناعي الإسرائيلي. كما أن العديد من الشركات الأمريكية، مثل جنرال إلكتريك، وسعت من عملياتها داخل إسرائيل، مستفيدة بذلك من قوة عمل رخيصة ومكونة تكوينا جيدا.

و لم تهدأ التناقضات الطبقية الداخلية إلا بعد 1967. وفي بداية السبعينيات، برزت إحدى التهديدات الأكثر خطورة: الفهود السود الإسرائيليون، وهي حركة أقامت علاقة مع منظمة التحرير الفلسطينية وتبنت خطابا طبقيا. لم تكن هذه الحركة قادرة على احتواء الاحتجاجات، بالنظر إلى ما تعرضت له قيادتها من مضايقات و إغراءات. وفي هذه المرحلة كذلك عرف الفلسطينيون بالضفة الغربية وقطاع غزة بلترة متزايدة، وتزايدت لديهم إمكانية التكاثر الاجتماعي في أرياف هاتين المنطقتين ذات الكثافة السكانية الزراعية والقروية المرتفعة. وفي حين ظل الفلسطينيون يحتلون المراتب الأدنى في السلم الطبقي، تمكن اليهود الشرقيون (المزراحيون) من التحول إلى بورجوازية صغيرة، الأمر الذي شكل بالنسبة إليهم حافزا لدعم الاحتلال ثم مشروعِ المستوطنات بعد ذلك. وفي بداية الثمانينيات، عرفت القاعدة الصناعية- العسكرية الإسرائيلية نموا هائلا. فبفضل الدعم القوي الذي كانت تتلقاه من الدولة – من 30 إلى 40 في المائة من الميزانية في بعض السنوات – تمكنت شركات الدولة من أن تصبح قوية بما يكفي لتدخل المنافسة على مستوى الأسواق الدولية. و في نفس الآن ازدادت حدة التراتبية في صفوف الطبقة العاملة الإسرائيلية. وبالنظر إلى الطبيعة الاستعمارية لإسرائيل، كان المبتغى هو تهدئة التوترات الطبقية الداخلية على حساب سكان الضفة الغربية وقطاع غزة. ووفقا للعقيدة الإلحاقية لأحزاب السلطة، تم إخراج مشروع المستوطنات: إسرائيل تسرق مزيدا من الأراضي، وتنشئ مشاريع سكنية بأثمنة مناسبة ودولةَ الرفاه. و قد ارتفعت وتيرة هذا المشروع خلال الثمانينيات، في إطار تضخم متسارع شهدته إسرائيل، و تمركزٍ و إعادةِ هيكلة صناعيين، وفوق ذلك كله في إطار التقويم الهيكلي.

في هذه اللحظة بالضبط تشكلت الطبقة المسيطرة الإسرائيلية باعتبارها طبقة. فالرأسمال الخاص كان دائما عنصرا من عناصر المشروع الاستعماري الرأسمالي، من خلال مستثمرين أوروبيين وأمريكيين وكذلك عابرين للقارات، غالبا ما كانوا أعضاء من النخب اليهودية التي تضع أموالها في السوق الإسرائيلية الصاعدة. وتدفق الرساميل لم يكن دائما عبارة عن إعانات تدخل إلى إسرائيل، لكن وكذلك تدفقات تخرج من إسرائيل على شكل أرباح. فالبنوك المحلية ومصالح مالية أخرى، خاصة في

مجال تجارة الألماس، تطورت منذ الأربعينيات إلى غاية السبعينيات. لكن النخبة السياسية الإسرائيلية في الثمانينيات طبقت على اقتصادها سياسة التقويم الهيكلي وقامت بلبرلة تدفقات الرساميل، وفتحت أبوابها على الولايات المتحدة وبلدان أخرى لتمكنهم من الاختلاط بالنخبة الإسرائيلية. وشكلت خوصصة صناعة الدولة والشركات التجارية عنصرا آخر من هذه السياسة. و غالبا ما تم بيع هذه الشركات بأثمان بخسة إلى أشخاص مطلعين مقربين سياسيا من النظام. ومثَّل هذا الأمر أحد عناصر الانطلاقة السريعة للبورجوازية الإسرائيلية. في هذه اللحظة بالذات، بدأت العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة تتغير. فخلال السبعينيات والثمانينيات كان الدور المركزي لإسرائيل يتمثل في إنجاز الأدوار المتسخة التي لا تستطيع الولايات المتحدة التكفل بها مباشرة، والمتمثلة في تسليح الأنظمة الفاشية بأمريكا الوسطى والجنوبية وتسليح نظام الأبارتيد بجنوب إفريقيا و نقل الأسلحة إلى إيران. لكن الرأسمال الإسرائيلي في نهاية الثمانينيات أضحى مستعدا "للاندماج" في أسواق البورصات العالمية. ووقعت إسرائيل اتفاقا للتبادل الحر مع الولايات المتحدة. وقد سرَّعت الانتفاضة الفلسطينية من عقد اتفاقيات مدريد ثم أوسلو، اتفاقيات اعتبرت من أجل "السلام" مع الفلسطينيين. و قد مكنت هذه الاتفاقيات من تحقيق مشروع "الدولة" لفائدة الطبقة القيادية الفلسطينية، ومكنت بورجوازيةَ المنفى بدول الخليج من قاعدة ترابية قصد إنجاز استثماراتها. وكانت هذه الاتفاقات تجسد كذلك سعي إسرائيل إلى تحويل الاحتلال إلى الدولة الجديدة، الدولة الكومبرادورية الكامنة، أي السلطة الوطنية الفلسطينية. وقد شهد مشروع بناء المستوطنات نموا مهولا، بحيث تضاعف حجمه ما بين 1993 و 2000؛ فإسرائيل استثمرت هذا السلام المزعوم لكي تُحكم قبضتها على الأراضي الفلسطينية – وهي سيرورة "باردة" لمواصلة التراكم البدائي الذي استعملته إسرائيل لشراء الطبقات الوسطى و الشعبية. فهذه الطبقات لم تنل نصيبها من أرباح أوسلو. فقُدمت لها تعويضات على هذا النحو.

وقد تمكنت شرائح البورجوازية الحاكمة في إسرائيل، المرتبطة بالتكنولوجيا الدقيقة، من تحقيق نتائج هامة؛ ذلك بأن استثمار قوة العمل في مجال التربية، والأجور المتدنية التي تتلقاها، خلقت وسطا ملائما لتطور التقنية الرفيعة. فقد اعتمد المستثمرون على البنية التحتية القائمة لرأسمالية التكنولوجيا الدقيقة، وفي نفس الوقت، قاموا بإدخال أداة صناعية جديدة، كان من نتائجها تقديم مكافأة للرأسمال الإسرائيلي في إطار عولمة الاقتصاد الإسرائيلي.

في هذه اللحظة، كانت المقاومة الفلسطينية قد أصابها العطب. و في أواسط التسعينيات، تم تجريم المجموعات الفلسطينية المسلحة بوضعها ضمن "لوائح الإرهابيين"، الأمر الذي حرمها من أي دعم مادي. كما أن حل منظمة التحرير الفلسطينية، مَثَّل ضربة لفلسطينيي الشتات، في حين اعتبرت أوسلو أن السكان الفلسطينيين هم فقط سكان الضفة الغربية وقطاع غزة، فيما احتل التطبيع و المنظمات غير الحكومية المشهد الفلسطيني، فتم خلق مجتمع مدني اصطناعي وجَعْل المقاومة سلميةً.

وفي سنة 2000، مع انتخاب جورج بوش، تباطأت العولمة، وعوضها نزوع نحو الحرب لدى الولايات المتحدة، إذ قامت بمهاجمة العراق و أفغانستان. وفي هذه الفترة دفع أرييل شارون الفلسطينيين إلى الانتفاضة ليتسنى له تدمير ما تبقى من العناصر الوطنية في السلطة الفلسطينية وفتح. على هذا النحو، برز نزوع نحو الحرب "الساخنة" داخل فلسطين التاريخية، وفي الآن نفسه، داخل دوائر القرار الأمريكية. وجنى البترول الأمريكي و المالية و صناع الأسلحة أرباحا طائلة خلال هذه المرحلة، كما أن إسرائيل راكمت الأرباح من "عولمة" قضايا الأمن وتكنولوجيات القمع، التي تطورت خلال سنوات أوسلو. وفي نفس الآن قاد هذا النزوعُ الحربَ في الخارج بدعم أمريكي و إسرائيلي، كانعكاس للتقاطب الاجتماعي داخل البلدين؛ وكان من مهام التوتر المرتبط بالحرب الخارجية، تحويل الأنظار عن التمايز الطبقي بالداخل والتخفيف من عبئه.

وفي إسرائيل، دعم قطاع صناعة الأسلحة وقطاع الأمن الصاعدُ أرييل شارون. فاندفاعه نحو "الحرب الساخنة" كان حاضنا إضافيا لمصالح الرأسمال، فجعل من فلسطين مختبرا دائما لتكنولوجيات التسلح الإسرائيلية و مراقبة الساكنة. من هنا فإن حصص الرأسمال الإسرائيلي المستثمَرة في تصدير الأسلحة و المعدات و الخبرة الأمنية، تعاظت أكثر فأكثر لتصدير تكنولوجيات مربحة للغاية.

وقد تضافرت هذه العوامل و واصلت تأثيرها خلال إدارة أوباما، بحيث تمكَّن النزوع إلى الحرب الساخنة المسيطرُ، من القضاء على حماسٍ ضعيفٍ كان قد بدأ يتشكل لدى الطبقة الحاكمة، في إقامة نظام بانتوستنات تحت قيادة السلطة الفلسطينية. وقد واصلت الولايات المتحدة حروبها الساخنة و أضحت إسرائيل من أكبر الدول المصدرة للأسلحة في العالم، بينما حققت الولايات المتحدة أرقاما قياسية سنوية في مبيعات الأسلحة بالمنطقة. فالدولتان تجنيان أكثر فأكثر أرباحا من تجارة الأسلحة ومن سياسة مشتركة لتحطيم آخر معاقل القومية العربية – بداية في العراق ثم ليبيا والآن في الحرب بسوريا. ما يسعيان إليه هو إعادة استعمار المنطقة، استعمار يتميز هذه المرة بتدفق شديد الانفتاح للرساميل. في هذا السياق اتخذت إيران وحزب الله طابعا مناهضا لهذا النظام، يتميز بالتزام أيديولوجي وعملي للدفاع عن السيادة و كذلك لدعم المقاومة الفلسطينية.

من الصهيونية التاريخية إلى دولة الأبارتيد

مأسسة التمييز أو تثبيت الأبارتيد من حيث الوضع القائم و بموجب القانون

إن الازدواجية القانونية المعمول بها في إسرائيل (داخل الحدود المعترف بها دوليا) والتي تقوم على مبدأ الفصل بين المواطنين الفلسطينيين (يطلق عليهم إسم عرب إسرائيل أو العرب الإسرائيليين) و اليهود الإسرائيليين، تعبر عن مأسسة التمييز داخل مجال ترابي يقع تحت السلطة الإسرائيلية. هذه الازدواجية ليست سوى انعكاس قانوني وحقوقي للتناقضات المحايثة للصهيونية ولمشروع إقامة "دولة اليهود" في منطقة غالبية سكانها من غير اليهود. أشلي دافدسون يذكرنا بدلالة مفهوم الأبارتيد:

"الأبارتيد المنصوص عليه في اتفاقيتين دوليتين، يتشكل من أفعال لا إنسانية يتم ارتكابها بهدف تحقيق وتعزيز سيطرة مجموعة عرقية على مجموعة عرقية أخرى، وممارسة قمع ممنهج عليها. ويكمن العنصر الأساسي الأول للأبارتيد الإسرائيلي في سلسلة من القوانين والسياسات التي تقيم تمييزا بين اليهود وغير اليهود وتؤَمن وضعا قانونيا تفضيليا وامتيازات مادية لصالح الفئة الأولى. فمواطنو إسرائيل الفلسطينيون، وفقا لمنظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية – الفلسطينية "عدالة"، سيجدون أنفسهم أمام ما يقارب 50 قانونا ومشروع قانون، إما أنها تعطي الأفضلية لليهود أو تمارس التمييز مباشرة ضد الأقلية الفلسطينية"[21].

ومنذ إعلان الدولة، كان للتشريع مهمة واضحة: تشجيع النمو الديمغرافي لدى اليهود وامتلاك الأراضي لتصبح جزءا من "ممتلكات الشعب اليهودي". ولهذه الغاية قام الكنيسيت سنة 1950 بسن "قانون العودة" الذي يحدد من هو اليهودي من منظور قانوني، ويتيح لكل يهودي في الشتات (اليهود من مختلف البلدان) إمكانية الهجرة إلى إسرائيل. هذا الوضع الخاص الذي أعطيَ للهوية اليهودية، تم تطبيقه بعد ذلك خارج حدود إسرائيل، أي في الأراضي المحتلة، وبذلك تم تعميم الوضع القانوني التفضيلي والامتيازات المادية، على المستوطنين اليهود. وقد تم ذلك بتواز مع المنع الكلي ل "حق العودة" للاجئين الفلسطينيين. وفي ما يتعلق بتملك الأراضي، صوت الكنيسيت على ترسانة من القوانين تشرعن السرقة، وسنقدم نبذة عن ذلك في الفقرات المتعلقة بالصندوق القومي اليهودي.

شلومو ساند، وهو مؤرخ إسرائيلي، يُعرف دولة إسرائيل بكونها إثنوقراطية. ويؤكد:

"إنها دولة لا تكمن مهمتها الرئيسية في خدمة شعب مدني و تواق للمساواة، بل في خدمة إثنية بيولوجية ودينية تخييلية على المستوى التاريخي لكن شديدة الحيوية، وهي إقصائية و تمييزية في كينونتها السياسية"[22].

ساند يحيل على الإثنية البيولوجية، أي على انتقال الانتماء إلى الجماعة اليهودية عبر سلالة الأم أو عن طريق اعتناق الديانة اليهودية. إن المزاوجة بين هذه البنية و الأبارتيد الممارس على مستوى الدولة، هي ما يؤسس الإثنوقراطية. ونضيف بأن نموذجا للبناء الاجتماعي قائما على الأبارتيد يستلزم بالضرورة إثنية ذات نزعة تفوقية. و من المحزن حقا أن هذا البارامتر ما يزال محدِّدا بالنسبة للهوية اليهودية بعد كل ما نجم عنه، طيلة عقود، من أفكار مسبقة وتمييز على أساس المكون البيولوجي و الوراثي.

الأجهزة الاستخباراتية

بدأ التفكير في إقامة جهاز استخباراتي منذ استقرار المستوطنين. وبديهي أن الهدف منه كان يتمثل في جمع معلومات حول البريطانيين قصد محاربتهم و إجبارهم على الرحيل. وكان الهدف منه كذلك يتمثل في معرفة مَن مِنَ المؤسسات و الأشخاص عبر العالم يمكن الاعتماد عليه في دعم إقامة الدولة. وانصب نشاطه بشكل خاص على تنظيم هجرة اليهود غير الشرعية إلى فلسطين، أي هجرة الأشخاص الذين لم يتمكنوا من الحصول على وثائق الهجرة التي كانت تسلمها السلطات البريطانية. و لهذه الغاية، كان يتعين جمع المعلومات على الصعيد الدولي. هذه البنية التي كان يتم تعيين غالبية أعضاء قيادتها العليا من طرف الموساد، تم حلها سنة 1952.

تم إنشاء الموساد (معهد الاستخبارات والمهام الخاصة) سنة 1951. وهو تابع مباشرة للوزير الأول، الوحيد القادر على الترخيص للقيام بالاغتيالات...وإلى غاية 1980، كانت ملاحقة قدماء المسؤولين النازيين، تمثل حيزا هاما من أنشطة الموساد. وقد مكنت هذه المهمة من تطوير شبكة واسعة للتبادل مع متعاونين من مختلف أجهزة الاستخبارات، وبناء مجموعة هلامية من المتواطئين داخل المجموعات اليهودية في العالم، مكلفة بتجميع معلومات و المساهمة في عمليات التجسس محليا.

ومن بين الوقائع التي طبعت عمل الموساد نذكر، اختطاف المسؤول النازي أدولف إيشمان بالأرجنتين سنة 1960، وتسريب الجاسوس إيلي كوهن إلى الحكومة السورية، الذي تم كشفه و إعدامه سنة 1965، واغتيال ثلاثة قياديين فلسطينيين، كمال ناصر و كمال عدوان و أبو يوسف، في أبريل 1973 ببيروت من طرف كوماندو بقيادة إيهود باراك، و التسلل إلى التراب التونسي لاغتيال أبو جهاد داخل منزله في أبريل 1988.

لم يكن عملاء الموساد بالخارج، على العموم، يتلقون تعويضاتهم من الأجهزة التي يعملون بها، ويسمون بالعبرية "سيانيم" (أي مساعدون). وقد كانوا ينظمون كذلك حملات مؤيدة لإسرائيل، مثل حملة المطالبة بإطلاق سراح جيلاد شاليت أو حملات للتشهير بإيران و حماس و حزب الله، أو برؤساء مثل شافيز و لولا، أو بمرشح بوديموس بابلو إغليسياس بإسبانيا. كما كانوا ينسقون العديد من التدخلات الساعية إلى محاصرة حركة BDS (الحركة من أجل المقاطعة و سحب الاستثمارات و فرض العقوبات)[23] وهي في طور النمو آنذاك. إن شعبية لفظة "سيانيم" تعود إلى مؤلَّف يحمل عنوان Printemps des Sayanim (ربيع السيانيم) عن دار النشر لارمتان (L'Harmatan, 2010) للكاتب

الفرنسي- المغربي جاكوب كوهين. و تنسيق الموساد مع "هاسبارا" (جهاز الدعاية) أمر بديهي (انظر الفقرات اللاحقة).

إن تجنيد الموساد لمسلمين وعرب وأمازيغ ومسيحيين شرقيين، نساء ورجالا، أمر معتاد. فرق تسد؟ القضاء على الإحساس بالانتماء إلى مجموعة عربية كان، منذ اتفاقيات سايكس- بيكو، هدفا استراتيجيا ملحا للاستعمار والإمبريالية، و تبنته الصهيونية وفعَّلته بهدف استئصال كل محاولة للقطع مع مراكز القرار الدولية، والحيلولة دون خلق مجموعة إقليمية عربية مندمجة.

و التحقيق الذي أنجزه صحفيان إسرائيليان، رونين بركمان و شلومو ناكديمون من الجريدة الإسرائيلية يديعوت أحرنوت، أزاح الستار عن وجود علاقات بين المملكة المغربية و الموساد الذي قدم مساعدة ثمينة في عملية اختطاف المهدي بنبركة سنة 1965 بباريس.:

"مكنت المخابرات المغربية عملاء من الموساد، من معلومات أساسية. ففي الفترة ما بين 13 و 18 شتنبر 1965، عقدت الجامعة العربية قمة بالدار البيضاء غاية في الأهمية. فقدم الملك الحسن الثاني لمير أمير مدير الموساد، كل الوثائق المتعلقة بهذا اللقاء، وكذلك تسجيلات للاجتماع الذي كان تحت التصنت". فضلا عن أن "هذه المعلومات الهامة جدا، قدمت فكرة عن مرامي أكبر أعداء إسرائيل[...] فخلال الاجتماع، عبر قادة الجيوش العربية على أنهم غير مهيئين لخوض حرب جديدة ضد إسرائيل".

بناء على هذه المعلومات، جزئيا، اقترح تساحال على حكومة ليفي إشكول شن ما سيسمى بعد ذلك بحرب الستة أيام سنة 1967"[24].

و في مقابل ذلك، اضطلع الموساد بمهمة متابعة تحركات المهدي بنبركة، و تقديم وثائق مزورة للعملاء المغاربة والفرنسيين المتورطين في هذه العملية. كما ساهم العملاء الإسرائيليون في إخفاء جثة بنبركة بعد أن تبين موته.

الشين بيت أو الشاباك هو جهاز لمحاربة التجسس، يعمل داخل الحدود الإسرائيلية . إنه وكالة للقمع الاستعماري تجاه السكان الأصليين. و معروف عن الشين بيت الإفراطُ في استعمال التعذيب الجسدي والنفسي في حق الآلاف من الفلسطينيين، متجاوزين بكثير "الضغوطات الجسدية المعتدلة".

والطرق المتبعة في تجنيد مخبرين فلسطينيين هي نفس الطرق التي تستعملها الأنظمة الشمولية، فوصف النظام الصهيوني بأنه " النظام الديمقراطي الوحيد في المنطقة" لأمر يبعث على الضحك و السخرية. ولمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى كتابات جوناثان كوك الصحفي البريطاني المقيم بالناصرة[25].

أما الجيش فله جهاز للاستخبارات خاص به، AMAN (أمان). ويتمثل دوره في إنجاز أبحاث موجهة، حول البلدان العربية المجاورة، والقيام بعمليات فيما وراء الحدود. وهناك تشكيلات أخرى تقوم بمهام استخباراتية.

جهاز الدعاية أو هاسبارا

ويستعمل اللفظ العبري هاسبارا الذي يعني "تفسير"، للدلالة على عمليات الدعاية التي تقوم بها الحكومة الإسرائيلية ومجموعات مساندة لها؛ و وفقا لشومسكي "تدل لفظة هاسبارا [...] على الدعاية الإسرائيلية، وتعني أن موقف إسرائيل دائما صحيح، فقط يتعين تفسيره".

تطور جهاز الدعاية

أضحى جهاز الهاسبارا أمرا ملحا سنة 1975 أمام إصدار الجمعية العامة للأمم المتحدة للقرار 3379 الذي يدعو إلى "القضاء على جميع أشكال التمييز العنصري"، ويعتبر بأن "الصهيونية شكل من أشكال العنصرية و التمييز العنصري". وخلال 17 سنة، استعملت الآلة الدعائية الإسرائيلية كل الأساليب بهدف إبطال هذا القرار. وهو ما تم فعلا سنة 1991.

أكيد أن كل الدول و التشكيلات السياسية والشركات تستثمر الكثير من الإمكانيات المالية و الكثير من الطاقة بهدف "التواصل" وحماية مصالحها، **لكن أن يشكل ذلك، العمودَ الفقري للنظام الصهيوني، فأمر يستحق بعض التعليقات**. ذلك بأن مسؤولي السياسات الحكومية الصهيونية واعون جيدا بأن مشروعية مطالبهم مبنية على تقديم عُدة حجاجية تستجيب للإحساس بالذنب لدى العالم "المسيحي" ولحذر أو خشية الرأي العام و أصحاب القرار البيض من الشعوب العربية- الإسلامية.

شرعت الحركة الصهيونية في بلورة سردها منذ ولادتها، كما هو مبين في بداية هذا النص. لا شك في أن شعارها يتمثل في الجملة "أرض بدون شعب لشعب بدون أرض" تكملها الجمل "خلال النكبة (1948) لم يتم طرد الفلسطينيين، بل هم الذين هربوا بعد خطابات القادة العرب" (يجدر ههنا التذكير بجملة بن غوريون الشهيرة "لم نطرد عربيا واحدا") و "إسرائيل هي الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط و تمتلك الجيش الأكثر تخلقا في العالم" و " الرواد الصهاينة حولوا الصحراء إلى بستان مزهر" ثم أخيرا " إسرائيل كانت دائما ترغب في السلم، العرب هم الذين رفضوا".

ولتبرير المجازر التي يرتكبها جيش الاحتلال في حق الفلسطينيين، أمام الرأي العام الأجنبي، كان الهاسبارا يلوح بعبارة " نحن في حالة دفاع عن النفس"، نافيا نفيا قاطعا ما يتم ارتكابه من قمع ونزع للممتلكات و سياسات الإبادة التي يتعرض لها الشعب يوميا و تستنهض المقاومة الفلسطينية.

و لإغلاق باب النقاش، يشهر الهاسبارا الإحساس بالذنب القائم لدى غير اليهود، من خلال الإشارة إلى، أولا: معاداة السامية الشاملة وغير التاريخية، وثانيا: الإبادة التي ارتكبت خلال الحرب العالمية الثانية و التي يتم تمييزها عن كل الجرائم ضد الإنسانية. إيلي فيزيل كان يقول بأن الهولوكوست يتعالى على التاريخ و على اللغز الأخير. فنكون إذن أمام ديانة الكارثة (shoah): بدون تفسير، الإجلال فقط.

بديهي أن هذه الخطاطة مصقولة جيدا و تتلاءم بسهولة مع آذان صناع الرأي و/ أو مسؤولي الدول و المؤسسات. وكان البروفسور إدوارد سعيد قد كتب سنة 2001[26] عن أنشطة الهاسبارا خلال الانتفاضة الثانية قائلا: إنها تتضمن سلسلة من المجهودات: وجبات غذائية و رحلات مجانية للتأثير على الصحفيين؛ منتديات لفائدة طلبة جامعيين يهود قد يقضون أسبوعا في مكان معزول فيصبحون مهيئين "للدفاع" عن إسرائيل في الميدان؛ أعضاء المؤتمر يتم قصفهم بالدعوات والزيارات؛ أعمدة (على الجرائد)، وأهم من ذلك أموال لتمويل الحملات الانتخابية؛ مصورو الانتفاضة الجارية وكُتابها يتم توجيههم (أو التحرش بهم، حسب الظروف) لكي ينتجوا هذه الصور لا تلك؛ معلقون تم تكوينهم على إثارة موضوع الهلوكوست و الأوضاع الصعبة التي تعيشها إسرائيل اليوم؛ إعلانات كثيرة في الجرائد تتهجم على العرب و تمدح إسرائيل؛ و هلم جرا".

بيير فيدال نكيت، من جهته، كتب بأن " [في إسرائيل] (موضوعة) إبادة اليهود كفت عن أن تكون واقعا تاريخيا معاشا على نحو وجودي، فغدت أداة تافهة للشرعنة السياسية، يتم إثارتها للحصول على هذا الإذعان السياسي أو ذاك داخل البلد، وكذلك للضغط على الشتات"[27].

وحاليا، باسم مكافحة مساعي النيل من شرعية الدولة الإسرائيلية و الإرهاب الإسلامي، أضحى العدو الرسمي للهاسبارا هو الحركة من أجل المقاطعة و سحب الاستثمارات و فرض العقوبات (BDS).

ميكانزمات الدعاية الصهيونية

وزير واحد وأجهزة متعددة

تم خلق وزارة (جديدة) سنة 2015. وتتوفر الهسبارا، إضافة إلى إدارة عامة لدى مكتب رئيس الوزراء، على فروع لدى وزارة الشؤون الخارجية، بينما يتولى كل من المكتب الإعلامي للحكومة، والناطق الرسمي باسم الجيش و خمس وحدات أخرى القيام بهذه المهمة.

هذه الوكالات المختلفة تهتم بتكوين (مدفوع المصاريف) قيادات جمعوية و مربين و نشطاء، داخل إسرائيل، و طلبة في "الشتات مثل الألوية من أجل هاسبارا: تُرصد إمكانيات معقولة لمحاصرة "الإرهاب السيبرنطيقي". "هم شباب مولعون بالإعلاميات ويتقنون لغة أجنبية واحدة على الأقل، للرد على الانتقادات التي تعج بها المدونات والبريد الإلكتروني لكبريات الجرائد الأوروبية والأمريكية. كما أن الموقع www.masbirim.gov.il يقدم معلومات عن الاختراعات الإسرائيلية و التكنولوجيا وكذلك حول حق الفلسطينيين في العودة. و المهاجرون نافعون جدا، ليس فقط لتغليب كفة النمو الديمغرافي، بل وكذلك لأنهم يعرفون لغات بلدانهم الأصلية وواقعها. علينا ألا ننسى معهد Reut (روت) الذي يشتغل مثل مختبر للأفكار من أجل النهوض بدعاوى الحكومة الصهيونية.

اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة

يتكون من يهود (الأغلبية) وغير يهود. على رأس مكوناته يوجد ال AIPAC (l'American Israel Public Affairs Committee) (لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية) الذي مكنه من احتلال مرتبة ما سمته النيويورك تاميز ب"النموذج الذي يحتذى به بالنسبة للوبيات الأخرى" و "اللوبي الأكثر نجاعة" و "القوة الأكبر في السياسة الأمريكية بالشرق الأوسط". تم إنشاء ال AIPAC سنة 1951، أي ثلاث سنوات بعد قيام دولة إسرائيل. يهود أمريكا الذين كان يوجد من بينهم، في تلك الفترة، العديد ممن نجوا من الإبادة النازية، يرون بأن الإبادة ما كانت لتحصل لو أن إسرائيل كانت موجودة.

و الموقع الإلكتروني ل AIPAC يصرح بأنه منظمة تُشغل 165 شخصا بدوام كامل في جل الولايات الأمريكية، وميزانيته 45 مليون دولار. و يتصرف ال AIPAC ، فضلا عن ما لديه من دعم سياسي قوي،في موارد هامة. و تترك الحفلات التي يقيمها كل سنة، انطباعا وكأن الأمر يتعلق بمراسم جوائز الأوسكار.

في مَجَرة المنظمات المساندة لإسرائيل داخل الولايات المتحدة نذكر: B'nai B'rith (أبناء الرابطة) و Anti-Defamation League (رابطة مكافحة التشهير) و Jewish Institute for National Security (المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي) و American Jewish Committe (اللجنة اليهودية الأمريكية) ومنظمات أخرى. غير أن الشبكة لا تقف هنا. ففي فرنسا نجد ال CRIF

"المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية بفرنسا" الشديد العدوانية، و في الأرجنتين ال DAIA (مفوضية الجمعيات الإسرائيلية الأرجنتينية) التي لا تقل عدوانية ... وجميعها مستعدة للعمل بشكل موحد تحت إمرة السفارات الإسرائيلية. هذه الآلة الضخمة المنسابة، يتم استعمالها قصد النيل من القادة والمثقفين "المغالين" في دعم الفلسطينيين. وهو ما حصل مع هوغو شافيز الذي تجرأ على طرد السفير الإسرائيلي بعد مجازر غزة في 2008- 2009، فأضحى بالتالي مستهدفا. و تتم حماية المنظمات التي تمارس فعليا سياسة داعمة لإسرائيل، من خلال الإعلان بأنها تعمل من أجل مصالح اليهود. و"لوبي إسرائيل" كما يسمى في الولايات المتحدة، ليس يهوديا إلا جزئيا. فهو يضم ثمانية من كبار الأغنياء الأمريكيين، من بينهم نجد ورثة الثروة النفطية Carnegie (عائلة كارنيجي)، ونجد كذلك عائلات أخرى اغتنت من تجارة الأسلحة و النفط و المواد الكيماوية و الملاهي، مثل شلدوم أدلسون. هكذا وكما ينص على ذلك تقرير IJAN (الشبكة اليهودية الدولية لمناهضة الصهيونية) المعنون ب The Business of Backlash (تجارة الارتداد) فإن: "الأساسي في تمويل شبكة مواجهة معاداة الصهيونية يقوم على أحد عشر من الأغنياء ذوي الثروة الطائلة، ويستمد العديد منهم ثروتهم من صناعات تجني أرباحا مباشرة من سيطرة إسرائيل على الفلسطينيين و من رهاب الإسلام و الحروب في الشرق الأوسط و تدهور البيئة، و يستثمرون فيها جميعها".

و تقدر ممتلكاتهم بأزيد من عشر مليارات دولار. بيكر و سكيف و كوش و شوسترمان، على سبيل المثال، يجنون أرباحهم من الاستثمار في شركات النفط. أما شيمك (من مؤسسة Fairbrook فيربروك) و بيكر فيستثمران بقوة في تجارة الأسلحة. كل أموالهما تأتي من صناديق المخصصات الإسمية أو من صناديق جماعية غالبا ما تحجب هويتها. ويتمثل دورها في تجميد أي خطاب نقدي حول إسرائيل أو حول الصهيونية. فمنتدى Daniel Pipes (دانييل بيب) من أجل الشرق الأوسط، على سبيل المثال، الذي يعتبر من المتلقين الرئيسيين لأموال المانحين الثمانية (من بين أحد عشر مانحا يحتلون رأس قائمة الموارد المساندة للصهيونية، وفقا لما كشفت عنه IJAN (الشبكة اليهودية الدولية لمناهضة الصهيونية))، يقوم بدور مركزي في شبكة مواجهة المعاداة (للصهيونية و إسرائيل). وهذا المنتدى يمول بدوره العشرات من الهيئات العاملة في إطار مواجهة المعاداة و رهاب الإسلام، بينما ينتمي بيب إلى مجلس الجامعيين من أجل السلام في الشرق الأوسط (SPME). هؤلاء المانحون لا يكتفون بمراقبة الخطابات و الميل نحو اليمين في كل الشؤون المتعلقة بفلسطين. فأدلسون و سكيف و برادلي والأخوان كوش، هم ممولون من الدرجة الأولى للفاعلين السياسيين اليمينيين على أوسع نطاق. و هم معروفون بدعمهم للقضايا التي يدافع عنها اليمين المتطرف، و التي نجد من بينها مهاجمة النقابات و دعم اليمين المتطرف داخل الحزب الجمهوري. فضلا عن دعمهم للمنظمات التي تستهدف المثليين و المثليات و حركاتهم والتعليم العمومي و

برامج اجتماعية أخرى و تقنين المحافظة على البيئة. وتركز استراتيجيتهم على الخطابات أكثر مما تركز على الأشخاص. ولذلك يمولون شبكة إعلامية بمثابة مختبر للأفكار، بهدف تمرير الأيديولوجية الصهيونية لدى الجمهور و دعم التسلح عبر البوليس في الداخل و الاجتياحات العسكرية في الخارج.

و بما أن اليهود الليبراليين بالولايات المتحدة يعتبرون هذه الكتلة التي أشرنا إليها، موغلة جهة اليمين، و أنها تدعم نتنياهو، فقد تم تأسيس لوبي معتدل سنة 2008 يدعى JStreet ، من بين مؤسسيه جورج سوروس. هذه المجموعة لا ترفض المشروع الاستعماري الاستيطاني، لكنها تدافع عن مشروعية ما تم غصبه إلى حدود 1967، و ترى أنه يتعين العمل من أجل المحافظة عليه عوض ركوب مغامرات غير محسوبة العواقب.

الأسلحة الثقافية للصهيونية

السينما

مواضيع مثل الحقيقة التوراتية و الحضارة اليهودية – المسيحية و الإرهاب العربي – الإسلامي، من شأنها تعزيز الصهيونية؛ فالعديد من أفلام الفرجة لها مسحة استشراقية.

ومنذ العقد الأول من القرن العشرين و القوى الاستعمارية الأوروبية (فرنسا و ألمانيا و بريطانيا العظمى) والولايات المتحدة، المسؤولة عن المشروع الاستعماري داخل ترابها، تراقب نشر صناعة السينما على المستوى الدولي. و إلى جانب هذه الجسارات الفنية و التقنية، تساهم السينما بقوة في البناء الثقافي الشعبي. فالأفلام التي تنتجها كبريات الاستديوهات، تساهم في صياغة و نشر الخطاب الهيمني حامل السرد القومي. ربما كان ذلك وسيلة لإضفاء المشروعية على هذه الصناعة الجديدة. فالويستيرن، الجنس المشع في هذه الصناعة، يعلي من شأن الأسطورة الأصلية للاجتياح الأوروبي لأمريكا و من شأن رواده الخيرين، على حساب الشعوب الأصلية.

شبكة القراءة هذه، تمكن من تجسيد كوكبة الهاسبارا. فالسينما تغذي النزعة الاستشراقية و تغذي في نفس الوقت رهاب الإسلام. هذا الشرق يتوهمه الغرب فاتنا وخطيرا، لكن دائما على نحو اختزالي. في المركز، هناك البطل الغربي الذكر الذي يستطيع الإعلاء من شأن تفوقه الثقافي بفضل قوته الجسدية و عزمه وذكائه، حتى ولو استعمل أساليب عنيفة. و الإنتاجات الضخمة التي باتت شائعة في الولايات المتحدة ابتداء من سنة 1920، خاصة الأفلام الهوليودية التي تختزل الشرق، لا تتوقف عند الشرق العربي. ففيلم Year of the Dragon (1985) لميكائيل سمينو، على سبيل المثال، يقدم صورة

عنصرية محضة و تمييزية عن التجمع الصيني بمدينة نيويورك، من خلال وصفه للطبيعة العنيفة و الخطيرة لهذه الجماعة.

مثال آخر: Lawrence d'Arabie (لورنس العرب)، أخرجه دافيد لين سنة 1963 مع البريطاني جِدّاً بيتر أوتول و عمر الشريف. في إحدى المشاهد يخاطب لورنس الشخصَ الذي قتل للتو صديقه، قائلا: "شريف علي، ما دام العرب يتقاتلون قبيلة ضد قبيلة، فلن يكون الشعب إلا حقيرا وبليدا وجشعا وقاسيا، مثلك !". فهويته تتحول ويصبح عضوا من قبيلة علي. إن السلطة الإمبريالية للورنس أمام شعب يصفه بالحقارة لا تفقده هيبته. وهو عندما يشارك في مجزرة "طفس" صائحا "لا نريد معتقلين !"، يكون هو نفسه قد أضحى ذلك المتوحش الذي استهجنه في بداية الفيلم. لم يعد يتعرف على نفسه، و يترك ملابسه العربية ثم يعود إلى بلد مولده إنجلترا، ليقضي ما تبقى من أيامه هناك.

الفيلم اللامع الذي يتناول التوراة و يمجد اليهود وكأن هذا المؤلَّف الديني كتابٌ في التاريخ، Les dix commandements (الوصايا العشر) لسيسل دوميل، تم إنجازه بالولايات المتحدة سنة 1956 مع شارلتون هستون في دور موسى. و هو فيلم فُرجَوي بامتياز، بمشهد مسيرة اليهود نحو الأرض الموعودة و عبور البحر الأحمر. و عند عرضه في القاعات، كان يعتبر أغلى فيلم تم إنتاجه، و يتمتع بامتيازات لم تتوفر لفيلم سابق، على مستوى التوزيع. ويعتبر حاليا، وفقا لويكيبيديا، من بين أكبر الأفلام على مر الأزمان.

ومن بين الأفلام التي تمجد القصة البطولية للصهيونية Exodus (إكزودوس) الذي يجسد النمط المفضل. من إخراج أوتو بريمنغر بالولايات المتحدة سنة 1960، وهو مقتبس عن رواية تحمل نفس الإسم للكاتب ليون أوريس. و تحكي الرواية عن الأحداث المرتبطة بقيام دولة إسرائيل وخاصة المسار المعقد للناجين على ظهر سفينة إكزودوس، في محاولتهم الالتحاق بفلسطين سنة 1947. الممثل الكبير بول نيومان هو من شخص دور آري بن كنعان أحد أعضاء الهجانة. و الفيلم عبارة عن تكثيف للصور النمطية، تقوم بعرض الناجين من الإبادة، و سيئي النية (أكيد الإنجليز) الذين يمنعونهم من الالتحاق بفلسطين، و بطل الهجانة ذي العينين الزرقاوين، و صورة المحاربة الشابة التي قتلها العرب وهي في السابعة عشرة من عمرها؛ أحد المحاربين اليهود يستجدي السكان الفلسطينيين سنة 1947 منْحه صداقتهم و ثقتهم من أجل إقامة دولة واحدة، في مقابل (حسب الفيلم) ما يطلبه منهم المفتي الكبير للقدس والعرب السيئين الذين يريدون تصفية كل اليهود. لا وجود لأية شخصية فلسطينية "إيجابية". ناهيك عن أن القصة الحقيقية لسفينة إكزودوس قد تم تحريفها. و قد تمكنت رسالة الفيلم و الكتاب من التلاعب بعقول أجيال عديدة سواء في الغرب أو في البلدان الأمريكية.

"شهران بعد ميلاد الدولة، غيرت رواية نشرت بالولايات المتحدة تَمَثُّلَ الجمهور لإسرائيل و اليهود. إكزودوس التي كتبها أحد قدماء البحرية اليهود، ليون أوريس، أضحت ظاهرة تحظى بافتتاحيات على المستوى الدولي، الرواية الأكثر نجاحا و شهرة بالولايات المتحدة، منذ رواية "ذهب مع الريح" (لمركريت ميتشل). فالرواية و الفيلم المقتبس منها ألقيا بملايين الأشخاص داخل حياة إسرائيل و أديا إلى سيل من التعاطف تجاه البلد الفتي"[28].

و في نفس السجل لكن بفظاظة أكبر، يأتي فيلم Delta Force لمخرجه ميناحيم غولان سنة 1986. غولان مخرج إسرائيلي تألق في هوليود. هنا الرسالة مباشرة أكثر، و أكثر استشراقا، بموضوعات الإرهاب و معاداة السامية و رهاب الإسلام، الملازمة للمقاربة النشوئية الصهيونية. ملخص السيناريو: إرهابيان لبنانيان ينتميان إلى مجموعة مرتبطة بالمنظمة الثورية العالمية المساندة للخميني، يقومان بتحويل مسار طائرة بوينغ 707 و احتجاز 144 من ركابها و طاقمها كرهائن. يعرضان مطالبهما على الحكومة الأمريكية و يهددان بقتل الرهائن إذا لم تتم الاستجابة لها. و خلال الأزمة، يقومان بفصل اليهود عن باقي الركاب.

نكون ههنا أمام مبدأ الأوعية المتصلة ما بين السينما المنتَجة داخل المقر المركزي للإمبريالية و الأنماذج (paradigmes) المهيكلة للتصورات الصهيونية. ففي فيلم Le Siège (1998) يصف إدوارد زفيك مجموعة إثنية مسلمة تهدد السلم في نيويورك.

و يبرز الموضوع المفضل لدى الهاسبارا، أي إبادة اليهود، في فيلم Shoah لكلود لانزمان (1985)، الذي يستغرق عرضه حوالي عشر ساعات. **و الفيلم في أصله، طلبٌ تقدمت به الحكومة الإسرائيلية.** و في تصريح للانزمان**:** كيف يمكن إيجاد إسم لِما لم يسبق أن حدث مثله في تاريخ البشرية؟ فسماه Shoah (الهولوكوست بالعبرية). ومنذ ذلك الحين صار إطلاق هذا الإسم على إبادة اليهود، يعتبر من البديهيات لدى عموم الناس ، بغية تمييزه عما سواه من الجرائم ضد الإنسانية. وقد كان للفيلم تأثير كبير منذ ظهوره على شاشات العرض. فالانكسار بين اليهود و غير اليهود، داخل الفيلم، عنيف جدا. البولونيون يتم تقديمهم على أنهم متواطئون مع الجلاد النازي. فغير اليهود جميعهم مذنبون. غير أن هذا الفيلم الذي أضحى رمزا للدلالة على الإبادة النازية، يوجه رسالة رتيبة تفتقد كليا إلى المهارة و الإبداع.

التعليم و الثقافة

تم وضع التعليم و الثقافة في خدمة بناء إنسان جديد، من خلال سرد استشراقي.

فالصهيونية ليست فقط عنصرية بل و معادية للسامية. فهي تعتبر بأن اليهود لا يمكنهم العيش وسط "الأمم"، لأن غير اليهود مؤاخذون بتهمة الحقد على اليهودي منذ ولادته، ومن طرف واحد. وقد استعادت الصهيونية لصالحها تلك الصورة الأوروبية المعادية للسامية التي تم تكوينها عن "يهودي الشتات" المخنث الجشع الضعيف، و قدمت في مقابلها صورة "يهودي جديد" فَحْلٍ قادر على ممارسة العنف، وذي روح قتالية ومسيطر على الأنثى، يهودي يمارس عنفا عرقيا عوض أن يكون ضحية له (IJAN). أوزي إليادا، وهو أستاذ جامعي بحيفا و متخصص في تاريخ الصحافة الشعبية بفرنسا و إسرائيل، يقدم لنا نبذة عن افتتاحيات جريدة Haaretz (هاريتز) حول وفاة مقاتل من مؤسسي جماعات الدفاع الذاتي اليهودي، خلال عملية عسكرية:

"الإنسان الجديد، وفقا لهاريتز، لم يعد يموت من أجل الرب، لكن من أجل الوطن. أولا، هناك قتال شجاع تخوضه جماعة صهيونية تشكل أقلية معزولة وضعيفة، ضد أغلبية عربية أكثر عددا وعدة بألف مرة؛ ثم ثانيا، هناك كفاح الإنسان اليهودي المتخلق و المتعلم، يمثل حضارة لائكية، ويمثل الحداثة و الأنوار و التقدم، في مقابل الهمجية العربية، حضارةٌ، بنيت على الجهل و الشعوذة و العنف غير القابل للضبط"[29].

لكن الأمر لا يتعلق فقط بالجانب البطولي للمهاجر الجديد القادم إلى فلسطين ليقاتل من أجل ذويه:
"اليهودي الجديد الفلسطيني إعادةُ خلق: عليه أن يتزود بسلالة ملائمة. فهو ينعت نفسه ب"العبري" ليرتبط مباشرة بالماضي العبراني السحيق لهذه الأرض. لم يعد يتعلق الأمر إلا بشباب عبراني، بلغة عبرانية. عبرانية ثمرةٌ طبيعية لأرض مستعادة"[30].

إن اختيار العبرية لغة للمستقَر القومي اليهودي، له دور محدد في بناء النصوص التاريخية الصهيونية: إن نهضة اللغة "المحلية" فوق الأرض "المستعادة" هي التي ستحدد "تجديد" الإنسان (المذكر بامتياز) اليهودي، الذي استطاع، أخيرا، أن يتخلص من لطخة التخلف و الخضوع، التي كانت تشكل إطار عيشه بالشتات الشرقي (بأوروبا). لغات الشتات مثل اليديشية و اليهودية الإسبانية و اليهودية المغربية ... كانت على الدوام عرضة لاحتقار ممنهج، مما مكن من إقصائها من الفضاء العام. وعلى هذا النحو تحققت الهيمنة اللغوية للعبرية.

والمصطلحية العبرية والعبرانية ليست مجرد وسيلة لوصل الحاضر بالماضي. فهي تروج مصطلحات تعمل على إخفاء "صناعة" الأبارتيد أو النمو المنفصل. ما هو عبري ليس عربيا.

أما الجامعة العبرانية، فتساهم في تشييء اللغة "المنبعثة". تم تأسيسها سنة 1918 وافتتاحها سنة 1925 بحضور شخصيات مثل ألبرت إنشتاين و سيغموند فرويد و القائد الصهيوني حاييم وايزمان، لكن وكذلك ممثلين عن الحكومة البريطانية و عن التجمعات المسلمة والمسيحية لفلسطين التاريخية. وحمْل كلمة "عبرانية " في تسميتها، مكن منذ البداية من قطع الطريق على الطلبة والأساتذة غير اليهود، مادامت الدراسة تتم بالعبرية فقط، آملة بذلك تكوين نخبة يهودية مثقفة ذات توجه صهيوني. ومنذ بضعة عقود تم قبول فلسطينيين من الداخل بهذه الجامعة.

وبناء على مقررات الجامعة العبرانية، المتبعة كذلك في باقي الجامعات الصهيونية، تم افتتاح شعبة متخصصة كليا في "تاريخ الشعب اليهودي" مستقلة عن شعبة التاريخ (التي كانت تسمى في إسرائيل ب "التاريخ العام"). وقد ساهمت بقسط وفير في إنتاج "المعرفة" بالماضي اليهودي[31].

إن نفي الشتات اليهودي، و الاكتفاء بسمات من أعراق مضمحلة، كما كان يقول أرثر روبان القائد الصهيوني البارز و مؤسس تل أبيب، له مضمون دقيق: تشييد متن من البارامترات يتيح إمكانية إصدار الأحكام على البشر والقوميات. هذا التوجه العرقي بدأ يبرز منذ ولادة الحركة الصهيونية، و لا زال فاعلا إلى يومنا هذا. فوفقا لروبان، "صار العنصر السامي مسيطرا داخل العرق اليهودي الأوروبي. ويعود ذلك إلى انفصال اليهود عن "أرض ميلادهم" و عن عالمهم الزراعي المنتج[32]. و الحل يكمن في "العودة" إلى "أرض"هم، بتملكها و زرعها.

و إلى غاية الحرب العالمية الثانية، كانت خصائص "الشرقي" مرتبطة بيهود الغيتو. و منذ رحيل يهود أوروبا إلى الشرق (فلسطين) في مهمة استعمارية، أصبحوا جزءا من المشروع الاستعماري للبِيض، ونالوا شهادة بياضهم. وبذلك شكل رحيلهم إلى الشرق إحدى رافعات بناء أنموذج "الحضارة اليهودية – المسيحية"، الذي تم الإعلاء من شأنه من قِبل الحكومات و الإعلام، باعتباره أنموذج القيم النابعة من أوروبا. و أكيد أن اليهود الذين عاشوا مضطهدين خلال قرون من لدن العديد من السلطات المسيحية، ذهلوا عندما علموا أنهم كانوا يَحيَون في كنف مجتمع يهودي – مسيحي.

هناك سيرورتان مختلفتان: العرب الفلسطينيون هم ضحايا التطهير العرقي بشكل واضح. والمهاجرون اليهود، حتى وإن تم قبولهم لدواع ديمغرافية، مدعوون إلى سيرورة إعادة التربية لكي يستحقوا إدماجهم داخل شعب السادة فوق الأرض المقدسة.

ما العمل مع يهود البلدان العربية- الإسلامية الذين يحملون بداخلهم وصمة الجنس المغلوب؟ كان دور الأشكيناز المسيطرين في الداخل الاستعماري ، داخل المجتمع الإسرائيلي اليهودي، يتمثل في القيام

بكل ما هو ضروري من أجل اجتثاث كل أثر للعروبة لدى هؤلاء الأشخاص.لذلك كان يتعين تشجيع استئصال "الشر"، أي طريقة اللباس و الأكل و الكلام والموسيقى، وباختصار، محو الثقافة اليومية. و يجدر التذكير ههنا بسؤال مالكوم إكس لجمهور من المضطهدين: من علمكم كيف تمقتون أنفسكم؟

أبا إيبان، الذي تقلد حقيبة وزارة الخارجية لمدة طويلة، كانت لديه حجة أكثر من معبرة: سيكون الهدف إشباع السيفارديم (اليهود غير الأشكيناز) بروح غربية وليس تركهم يقودوننا نحو استشراق اصطناعي.[33]

فكر فرانتز فانون المطلعِ جيدا على العالم الاستعماري، ملائم لتحليل مُعاش اليهود غير الأشكيناز داخل الكيان الصهيوني. و تتمثل أطروحته الرئيسية في أن الاستعمار يوَلد عصابا جماعيا لدى المستعمَر. فانون يبين لنا ميكانيزمات الاضطهاد الاستعماري: لا يستطيع الاستعمار أن يحقق ديمومة فعله إلا من خلال استبطان عقدة النقص، واليأس والإحساس بالعجز. بعد 1967، تمكن بعض اليهود المزراحيين، بعد السيطرة على أراض جديدة، وبعد أن صاروا عسكريين محترفين و رؤساء لبعض الشركات الصغيرة، التي تكون في بعض الأحيان شركات مناولة متعاقدة مع الجيش، (تمكنوا) من الحصول على تربية راقية مكنتهم من الاندماج. غير أن هذا الاندماج على شاكلة القطط الفارسية، بالمشاركة في الأوروفيزيون و في المسابقات الرياضية الأوروبية، كان دائما مشروطا. مضطهدون من لدن البيض الأوروبيين، يتكيفون، دون أن يرف لهم جفن، مع المنظومة القمعية تجاه الفلسطينيين، و بذلك يحصلون على موقعهم في المجتمع المسيطر داخل البنية الاستعمارية.

تطرقنا سابقا إلى وضعية السكان الأصليين من حيث الوضع القائم و من حيث القانون، والتي تعكس أنموذج الاستعمار الاستيطاني و نظامه القائم على الفصل العنصري. فرانتز فانون يصف هذه المجموعة: "هو ذا العالم الاستعماري.المواطن الأصلي كائن محبوس، والأبارتيد ليس سوى أسلوب لتقسيم العالم الاستعماري. إن أول ما يتعلمه المواطن الأصلي هو أن يراوح مكانه و ألا يتعدى حدوده"[34]. محمود درويش، الشاعر الفلسطيني المرموق، يكشف عن هذه الحالة في قصيدته الشهيرة "حالة حصار".

وبخلاف اليهود الموضوعين تحت وصاية طغمة الأشكيناز المسيطرة، فإن الفلسطينيين لم يطلهم التفكيك الثقافي، نظرا للشعور القوي الذي يجمعهم بالعالم العربي المحيط بهم، و بالنظر إلى ميكانيزمات المقاومة أو الصمود. إن الشعب الفلسطيني يواجه المستوطنين بالانتفاضات، عاقدا العزم على تجاوز منطق الاحتجاز.

[1] E. Hobsbawm : *The invention of tradition*, Cambridge Press, 1983

[2] Ch. Chivallon : *Retour sur la « communauté imaginée » d'Anderson,* CAIRN, 2007

[3] cité par M. Pirini : *La mémoire et l'histoire comme discours politiques*, www.irenees.net, Paris 2009

[4] N. Weinstock, *Le Sionisme contre Israël*, François Maspero, Paris, 1969, p. 44., cité par Céline Lebrun :Le Sionisme : un nationalisme juif à l'épreuve des postcolonial studies

[5] *Un colonialisme de peuplement plus que centenaire.* Source : https://www.erudit.org/culture/rel049/rel02295/80018ac.html?vue=resume&mode=restriction

[6] É. Barnavi : *Histoire universelle des juifs*, Fayard 2002

[7] Notes de Julien Salingue **:**http://www.juliensalingue.fr/article-le-sionisme-un-colonialisme-de-peuplement-retour-sur-une-conference-universitaire-a-londres-68949777.html

[8] I. Pappe, *Zionism as Colonialism: A Comparative View of Diluted Colonialism in Asia and Africa,* in South Atlantic Quarterly, Volume 107, N°4 « Settler Colonialism », Autumn 2008, pp. 611-633.

[9] P. Wolfe: *Settler colonialism and the elimination of the native*, in *Journal of Genocide Research*, December 2006, pp. 387–409.

[10] N. Finkelstein et N. A. Silberman : la Bible dévoilée, Folio Histoire, 2002.

[11] M. Machover: http://weeklyworker.co.uk/worker/1105/zionism-and-anti-semitism

[12] Pérez, Joseph (2013) [1993]. *Historia de una tragedia. La expulsión de los judíos de España*. Barcelona: Crítica

[13] انظر
http://crfj.hypotheses.org/310- (مركز البحث الفرنسي بالقدس) in :*Pour une histoire contextuelle de l'archéologie israélienne.*

[14] منظمة يمينية متطرفة، تقوم على النزعة التفوقية للبيض، أنشئت في الولايات المتحدة سنة 1865 (المترجم)

[15] انظر
M. Newton, *The Ku Klux Klan: History, Organization, Language, Influence and Activities of America's Most Notorious Secret Society*, McFarland & Company, 2006- cité par Wikipedia.

[16] Mousa Budeiri, "Israel and Zionism, Success and Failure," PANIM, No. 6, July 1998

[17] G. Shafir, *Land, Labor and the Origins of the Israeli-Palestinian Conflict: 1882 – 1914*, University of California Press, 1989

[18] J. Nitzan et S. Bichler, *The Global Political Economy of Israel* (London ; Sterling, Va: Pluto Press, 2002), 94

[19] Z. Lockman : Land, Labor and the Logic of Zionism: A Critical Engagement with Gershon Shafir, *Settler Colonial Studies* 2, no. 1 (2012): 9–3

[20] مذكور في:
Nitzan and Bichler, *The Global Political Economy of Israel*, 102, fn. 8 .

[21] A. Davidson : http://www.aurdip.fr/l-apartheid-n-est-pas-qu-une.html

[22] Sh. Sand, *Comment le peuple juif fut inventé. De la bible au sionisme*, Fayard, Paris, 2008, p. 350.

[23] حملة دولية أطلقها المجتمع المدني الفلسطيني سنة 2005 للمطالبة بضرورة ممارسة مختلف الضغوطات الاقتصادية والثقافية والسياسية على إسرائيل بهدف إنهاء الاحتلال و استعمار الأراضي العربية ،وتحقيق المساواة التامة مع المواطنين العرب الفلسطينيين داخل إسرائيل، واحترام حق العودة للاجئين الفلسطينيين.(المترجم)

[24] http://www.courrierinternational.com/article/renseignement-comment-le-mossad-aide-le-maroc-tuer-ben-barka

[25] http://www.courrierinternational.com/article/2008/09/18/comment-le-shin-beth-recrute-ses-indics

[26] E. Saïd : *Propaganda and War*

[27] Pierre Vidal-Naquet, *Analyse des relais dont disposent les négationnistes, Entretien avec François Bonnet et Nicolas Weill [archive]*, *Le Monde*, 4 mai 1996.

[28] God, Guns and Israel: Britain, The First World War And The Jews in the Holy City, Jill Hamilton, p 181.

[29] O. Elyada : **Mythes nationaux, mémoire et représentation de la guerre dans la presse israélienne (1948-1982). http://www.cairn.info/revue-hermes-la-revue-2008-3-page-109.htm**

[30] O. Elyada : **Mythes nationaux, mémoire et représentation de la guerre dans la presse israélienne (1948-1982). http://www.cairn.info/revue-hermes-la-revue-2008-3-page-109.htm**

[31] انظر لتعميق موضوعة الجامعة في تفاعلها مع السرد الصهيوني المسيطر
Sh. Sand sur : https://www.monde-diplomatique.fr/2008/08/SAND/16205

[32] A. Ruppin, in Bloom 2008: 116

[33] A. Eban cité par Alcalay 1993: 31

[34] F. Fanon : *Les damnés de la terre*, Maspero, Paris 1961, 1968